في رحاب عاشوراء

سماحة آية الله الشيخ محمد مهدي الآصفي

المجلد الثاني

٣-٤-٥



دار الكتاب الإسلامي

في رحاب عاشوراء

(٥)

بسم الله الرحمن الرحيم

فِي رِحَابِ عَاشُورَاءَ

الجُزءُ الخَامِسُ

آية الله الشيخ
محمد مهدي الآصفي

مؤسسة
دار الكتاب الإسلامي

شبكة كتب الشيعة
shiabooks.net
mktba.net < رابط بديل

المولف : اصفى، محمد مهدى، ١٣١٧ -
العنوان و المولف : فى رحاب عاشوراء / محمدمهدى الأصفى.
الناشر : قم : دار الكتاب الاسلامى ، ١٤٣٠ ق = ٢٠٠٩ م = ١٣٨٨ .   الكتابة : العربية .
التسلسل الرقمي : BP٤١/٧٥ف٦ى٩ ١٣٨٨ تسلسل ديوبى: ٢٩٧/٩٥٣٤ رقم الايداع بالمكتبة الوطنية: ٣٤٤٠٩٧١
الترقيم الدولي : 9789644652943   الترقيم الدولي للمجموعة : 9789644652950

جميع حقوق الطبع محفوظة و مسجلة للناشر

الكتاب : .... في رحاب عاشوراء(٥)

المؤلف : .... اية ا... الشيخ محمد مهدي الأصفي

الناشر: .... مؤسسة دار الكتاب الاسلامي

الطبعة : .... الاولى : ١٤٣٠هـ.ق / ٢٠٠٩م

المطبعة : .... ستارة

عدد المطبوع : .... (٣٠٠٠) نسخة

الترقيم الدولي للمجموعة : ٩٧٨-٩٦٤-٤٦٥-٢٩٥-٠

الترقيم الدولي : ٩٧٨-٩٦٤-٤٦٥-٢٩٤-٣

قم ميدان المعلم – شارع رقم ٢٢ – المبنى رقم ٢٦
تليفون: ٧٧٤٤٩٧٠ – ٧٧٣٠٩٩٤
فاكس: ٧٨٣٧٣٨٣

السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله

السلام عليك يا وارث نوح نبي الله

السلام عليك يا وارث إبراهيم خليل الله

السلام عليك يا وارث موسى كليم الله

السلام عليك يا وارث عيسى روح الله

السلام عليك يا وارث محمد حبيب الله

السلام عليك يا وارث أمير المؤمنين ولي الله

فهرس إجمالي

الخطاب الحسيني

المرحلة الثانية للثورة الحسينية

المدخل

ثورة الإمام الحسين عليه السلام ثلاث مراحل، نذكرها تباعاً:

المرحلة الأولى: التضحية والشهادة.

المرحلة الثانية: الخطاب.

المرحلة الثالثة: الثأر.

وهذه المراحل الثلاثة يتلو بعضها بعضاً في الرتبة، وليس في الزمن.

تمت المرحلة الأولى من هذا الحدث التاريخي العظيم في كربلاء يوم العاشر من محرم سنة (٦١ هـ).

وافتتح أهل البيت عليهم السلام المرحلة الثانية عند دخول الكوفة في مدخل المدينة، عندما استقبل أهل الكوفة الرؤوس الشريفة وسبايا أهل البيت عليهم السلام.

ثم توالت بعد ذلك حلقات الخطاب، حلقة بعد حلقة، عصراً بعد عصر، وجيلاً بعد جيل، ولم يزل الخطاب الحسيني قائماً في حياتنا منذ ذلك الحين، من خلال المنبر الحسيني والشعر والنثر والشعارات السياسية الحسينية ونصوص الزيارات الواردة من أهل البيت عند زيارة الحسين عليه السلام مثل زيارة (وارث) و (عاشوراء) وغيرهما إلى اليوم.

والمرحلة الثالثة: الثأر، بدأها أهل الكوفة النادمون على تخلّيهم عن نصرة الحسين عليه السلام، فاجتمعوا حول سليمان بن صرد الخزاعي وفي منزله بالكوفة ليتجهزوا للثأر، ثم لمّا هلك يزيد سنة (٦٤ هـ) وثب المختار الثقفي على إمارة الكوفة، وتولّى أخذ الثأر، وكانت هذه هي البداية، ثم تتابعت حلقات

الثأر تحت شعار: (يا لثارات الحسين)، ولا يزال الخطاب قائماً ولا يزال الثأر قائماً، ويختم الإمام المهدي من آل محمد ﷺ، هذه الحركة في التاريخ بالقضاء الكامل على مواقع الظلم، وأئمة الجور في المجتمع، فيكون خاتمة الثائرين، كما تواترت بذلك روايات الفريقين عن رسول الله ﷺ.

* * *

إنّ مصرع الحسين عليه السلام وأصحابه بكربلاء، ليس حدثاً كسائر الأحداث في التاريخ... بدأ الحسين عليه السلام البداية المفجعة لهذا الحدث في سنة (٦١هـ) بكربلاء وامتدت آثاره ونتائجه وتفاعلاته إلى اليوم.

وليس من ريب أن الإرادة الإلهية تدخلت في تجريد هذا الحدث من الحدود الزمانية والمكانية التي تحدُّ كل حدث، واسباغ صفة الشمولية والعمومية عليه لكل التاريخ، ولكل المساحة الجغرافية التي يجري عليها الصراع من الحق والباطل من وجه الأرض.

فكانت عاشوراء رمزاً لكل خروج وتمرّد على الطغاة والأنظمة الجائرة في تاريخ الإسلام، وكانت عاشوراء عاملاً لتحفيز المحرومين والمستضعفين على مواجهة المستكبرين، والدعاة إلى الله على مواجهة أئمة الكفر، وكانت عاشوراء شعاراً دائماً في هذا الصراع للصالحين والمستضعفين في مواجهة الجبارين والمستكبرين.

وإسباغ هذه العمومية والشمولية لكل التاريخ، ولكل المساحة التي يجري عليها الصراع من وجه الأرض لعاشوراء وكربلاء من صنع الله وبإرادة الله بالتأكيد، وليس لإنسان أن يوسع الدائرة التاريخية والجغرافية لحدث، مهما كان بهذه الصورة إلاّ بإذن الله. فكانت عاشوراء كل التاريخ،

وكانت كربلاء كل الأرض.

ولو كان الناس هم الذين يتولّون إدارة حلقات ومراحل هذا الحدث لانتهى أمده منذ حين، وفقد بريقه وتأثيره في وجدان الأمة بمرور الزمن، مهما كان هذا الحدث.

ولكن الله تعالى شاء أن يجعل من هذا الحدث ضماناً لسلامة هذا الدين، وسلامة هذه الأمة من تحريف الظالمين وبطشهم، وعاملاً لتحفيز الصالحين على الفاسدين، والمستضعفين على المستكبرين في تاريخ الإسلام.

وشاء الله أن تتحول عاشوراء من حدث في التاريخ إلى ثقافة، وشاء الله أن يكون لهذه الثقافة دور كبير في تحفيز الصالحين وتحريكهم وتثويرهم، وان تتحول هذه الثقافة الى عامل من أهم عوامل المقاومة والصمود في تاريخ الإسلام.

فكان كل خطاب في مقارعة الظالمين وإنذارهم ومواجهتهم إمتداد للخطاب الحسيني، وكان كل خطاب في تحفيز الصالحين ودعوتهم للخروج والمقاومة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر امتداد لذلك الخطاب.

وكان كل انتصار للصالحين على الفاسدين والمظلومين على الظالمين حلقة جديدة من حلقات ثارات الحسين عليه السلام.

إنّ هذا الفهم وهذه الرؤية العامّة والشاملة للخطاب الحسيني، ولثارات الحسين عليه السلام هي مدار هذا البحث ومحوره.

إنّ المرحلة الأولى من شهادة سيد الشهداء الحسين عليه السلام حدثت وانتهت في يوم العاشر من المحرم سنة (٦١ هـ).

ولكن المرحلة الثانية والثالثة من هذا الحدث التاريخي سوف تبقى وتدوم ولن تنتهي، ما كان للظلم والشرك حضور في مراكز القوة على وجه الأرض.

وفي هذه الدراسة سوف نشير إشارة إجمالية إلى المراحل الثلاثة لثورة الحسين عليه السلام، ثم نعقبه بدراسة للمرحلة الثانية فقط، وهي مرحلة الخطاب، على أمل أن يوفقني الله لدراسة المرحلة الثالثة وهي الثأر، وإليك هذا الاجمال والتفصيل.

الفصل الأول

المراحل الثلاث للثورة الحسينية

المرحلة الأُولى لثورة الحسينعليه السلام : التضحية والشهادة

المرحلة الأولى لثورة الحسين: هي شهادة الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه... وكان حدثاً مفجعاً مأساوياً، لا نظير له في تاريخ الإسلام، وفي نفس الوقت ملحمة من أنصع ملاحم البطولة والصمود والتضحية والإباء والرفض في تاريخ الإسلام.

وقد ترك هذا الحدث المفجع أثراً عميقاً في وجدان المسلمين إلى اليوم.

وتعود قيمة هذا الحدث وأهميته وتأثيره العميق في وجدان المسلمين إلى العناصر التي ساهمت في تكوين هذه الملحمة البطولية الرائعة والمشهد المأساوي المفجع.

فقد اجتمعت كوكبة من خير من على وجه الأرض هدىً وصلاحاً ورشداً وتقوى وبصيرة وإخلاصاً ويقيناً وما لست أعلم من القيم، حول الحسين عليه السلام في كربلاء لتساهم في تكوين هذا الحدث المأساوي والبطولي الخالد.

وقد قرأنا الكثير من ملاحم البطولة ومن مواقف الصمود في تاريخ الإسلام... ولكن قلّما نجد مشهداً يجمع هذه النخبة من أصحاب البصائر والوعي ومن أصحاب المقاومة والصمود، ومن أصحاب الإخلاص واليقين كالذي اجتمع حول الحسين في كربلاء.

فقد كان أصحاب الحسين عليه السلام في كربلاء من أكثر الناس وعياً ومن أصدق الناس في التعامل مع الله. ومن أكثر الناس بصيرة وشجاعة وصلابة وثباتاً. ومن أخلص الناس لله وأكثرهم يقيناً بالله، وحباً له وثقة به وتوكلاً عليه.

فقد اجتمع في هذه الرقعة المحدودة من الأرض في كربلاء يوم عاشوراء قمم رفيعة من البصيرة والوعي والإخلاص واليقين، والإيثار والمعرفة والاستقامة والصمود والبطولة والخشوع والعبودية لله، والصبر على الأذى في جنب الله، وما لست أعلم ولا أقدر على احصائه من القيم والفضائل.. حول الحسين عليه السلام ودخلت هذه المجموعة من القيم في تضحية مأساوية وبطولية نادرة، أعجبت ملائكة الرحمن وأفجعتهم... وليس من ريب أن هذا المشهد التاريخي الفريد في الإخلاص والإيقان والإيثار والصبر والصمود والحب والشوق الى الله كان من أعظم منازل رحمة الله تعالى.

وما نعرفه من بقاء هذا الحدث حياً فاعلاً مؤثراً في وجدان المسلمين إلى اليوم، والى ما شاء الله من الأيام يعود إلى هذه النقطة بالذات.

وإليك تفصيل هذه النقاط، بقدر ما يتسع له صدر هذا المقال:

أصحاب الحسين عليه السلام أكثر الناس وعياً

كان الحسين عليه السلام وأصحابه أوعى الناس وأبصر الناس بالواقع الموضوعي للفتنة التي عمّت المسلمين يومئذ على يد بني اُمية وآثارها السلبية على حاضر الإسلام ومستقبله.

وهذا هو الوعي الواقع الموضوعي الذي كان يعيشه المسلمون، وهو أحد شقي الوعي.

وكانوا أوعى الناس وأبصرهم بالمسؤولية الشرعية التي يفرضها الله تعالى عليهم في هذه الفتنة... وهذا هو الوعي الفقهي ولأحكام الله في ظروف الفتنة وهو الشق الآخر للوعي.

وللوعي شقّان يتكاملان: وعي الواقع الموضوعي ووعي الحكم الذي يفرضه الله تعالى على المسلمين، في مثل ذلك الظرف في الفقه، وقد كان الحسين عليه السلام وأصحابه من أبصر الناس وأوعى الناس بهذا وذاك.

ونحن نقرأ في الخطاب الحسيني يومئذ صورة دقيقة للواقع الموضوعي الذي كان يعيشه المسلمون، ولمأساة الإسلام والمسلمين في فتنة بني أُمية.

كما نقرأ فهماً دقيقاً شرعيّاً للحكم الشرعي في مثل هذه الفتن.

وإليك الصورة والفهم.

اما الصورة

روى الطبري، قال: قام الحسين عليه السلام بذي حُسم، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: **«أما بعد، إنّه قد نزل بنا من الأمر ما ترون، وان الدنيا قد تغيرت، وتنكرت، وأدبر معروفها، فلم يبق إلاّ صبابة كصبابة الإناء وخسيس عيش كالمرعى الوبيل، ألا ترون أن الحق لا يعمل به، وأن الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله محقاً.. فإنّي لا أرى الموت إلاّ سعادة والحياة مع الظالمين إلاّ برماً»**[1].

وهو تصوير دقيق ومعبر للفتنة التي حلّت بالمسلمين على يد بني أُمية، ولا أجد الوقت للتعليق على هذا النص.

١- تاريخ الطبري ٧: ٣٠٠ ـ ٣٠١.

وأما الحكم الشرعي

روى السيد ابن طاووس في اللهوف: أن مروان التقى الحسين عليه السلام صبيحة الليلة التي طلب الوالي ومروان فيها من الحسين عليه السلام البيعة فامتنع، فقال مروان للحسين عليه السلام: يا أبا عبدالله أني لك ناصح فاطعني ترشد.

فقال له الحسين عليه السلام: **«وما ذاك قل حتى اسمع»**.

فقال مروان: إنّي آمرك ببيعة يزيد بن معاوية، فإنّه خير لك في دينك ودنياك.

فقال له الحسين عليه السلام: **«إنّا لله وإنّا إليه راجعون، وعلى الإسلام السلام، إذ قد بليت الأمّة براع مثل يزيد، ولقد سمعت جدي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول: الخلافة محرمة على آل أبي سفيان»**[1].

وعندما ألحّ مروان على الحسين بالبيعة ليزيد ليلتها وطلب حبس الحسين عليه السلام وقتله حتى يبايع ليزيد... أقبل الحسين على الوليد (أمير المدينة) وقال: **«أيها الأمير، إنّا أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة، ومختلف الملائكة بنا فتح الله، وبنا يختم، ويزيد رجل شارب الخمور، وقاتل النفس المحرّمة ومثلي لا يبايع مثله»**[2].

* * *

والى جانب هذا الوضوح والوعي الفقهي والسياسي في جانب الحسين عليه السلام وأصحابه.. نجد في وسط الأمة يومئذ اتجاهين آخرين، في طريقة التعامل مع الفتن السياسية والنظام الأموي الظالم والفاسد وولاتهم في الولايات.

١ـ الملهوف: ١٩ـ٢٠.

٢ـ اللهوف في قتلى الطفوف: ١٧و٨٧ بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٥، تاريخ ابن الأثير٣: ٢٦٤، الفتوح ٥: ١٨ .

وكل من هذين الاتجاهين كان يخدم بني أُمية، ويذلّل المعارضة السياسية لهم، ويطوّع الجمهور لقبول هذا الظلم من ناحية ولاة وحكام ونظام بني أُمية، وكل ذلك من منطلقات شرعية، وباسم الإسلام.

وكان بنوأُمية يثقّفون الناس بثقافة السكوت، وقبول الظلم، ويعملون لإجهاض المعارضة السياسية لحكمهم بالوسائل الثقافية الدينية.

وقد نجح هذا الأسلوب في عزل المعارضة وتحجيمها أكثر من أي أُسلوب آخر... ولو كنت أجد فرصة للحديث عن هذا الجانب لأسهبت في تفاصيل الوسائل الثقافية الدينية التي استخدمها بنوأُمية، كالترويج لفكرة الجبر والقدر، لاقناع الناس بأن الذي يجري عليهم من ظلم، قضاء وقدر من الله لا سبيل لتغييره، والمعارضة السياسية والمسلحة إنّما هي محاولة لتغيير القضاء والقدر الإلهي، وهو من العبث بإرادة الله ومشيئته.

وقد بذل بنو أُمية الكثير لترسيخ وتثبيت هذه العقيدة وهي كفيلة بإجهاض كل معارضة سياسية لهم يمكن أن تنشأ في رحم الظلم والإفساد.

ومهما يكن من أمر: لقد كان هناك اتجاهان سياسيان في طريقة التعامل مع الفتن السياسية والنظام الأُموي وولاتهم.

الاتجاه الأوّل: التهرب من مواجهة الفتن والصراعات بكل أطرافها، والغياب الكامل عن مواقع الفتنة والمواجهة والصراع بكل أطرافها من حقّ أو باطل، فلم يستجيبوا لدعوة علي عليه السلام وابنيه الحسن والحسين عليهما السلام لمواجهة فتنة بني أُميّة، وكان شعارهم في ذلك حديث يروونه عن رسول الله صلى الله عليه وآله.

روى أحمد في (المسند) عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم والقائم خير من الماشي، والماشي

خير من الساعي، ومن وجد ملجأً أو معاذاً فليعذ به»[١].

وروى أيضاً أحمد في (المسند) عن أبي بكرة عن رسول الله ﷺ: «أنها ستكون فتن الماشي خير من الساعي إليها، والقاعد فيها خير من القائم فيها، والمضطجع فيها خير من القاعد»[٢].

ولست أشك إنّ هذه الأحاديث منتحلة موضوعة على رسول الله ﷺ، قد انتحلها بنوأُمية... وهي بخلاف صريح القرآن ومحكمه، وحديث رسول الله ﷺ لا يمكن أن يعارض القرآن.

والاتجاه الثاني: وجوب الطاعة والانقياد وتحريم الخروج والتمرّد على الحاكم الذي بيده السوط، مهما بلغ ظلمه وجوره وإفساده في المسلمين، وكان هذا رأي عبدالله بن عمر في هذه الفتنة، ومن وقف معه في إسناد دولة بني أُمية ودعمهم.

وقد وقف عبدالله بن عمر في وقعة الحرة التي أباد فيها بنوأُمية مدينة رسول الله ﷺ وقتلوا فيها الرجال وفجروا بالنساء، وأراقوا الدماء وهتكوا الحرمات، وأهلكوا الحرث والنسل... أقول وقف عبدالله بن عمر في هذه الوقعة مع بني أُمية ضد الثائرين على بني أُمية من أصحاب رسول الله ﷺ وأبناء الصحابة.

روى مسلم عن زيد بن محمد عن نافع، قال: جاء عبدالله بن عمر الى عبدالله بن مطيع حين كان من أمر (الحَرَّة) ما كان زمن يزيد بن معاوية. فقال: اطرحوا لأبي عبدالرحمن وسادة، فقال: اني لم آتك لأجلس. أتيتك لأحدثك حديثاً، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من خلع يداً من طاعة لقي

١- مسند أحمد ٢: ٢٨٢.

٢- مسند أحمد ٥: ٤٨٥.

الله يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»[١]. هذا إذا كان أمير مسلّط قائم غالب، وان كان فاجراً معلناً للفسق.

وإذا اختلط الأمر في الفتنة، فلا يعرف فيها الغالب من المغلوب، كان يقول: (نحن مع من غلب).

وكان بنوأمية يشجعون ويدعون الى هذا النمط من الفقه الذي كان يحمله عبدالله بن عمر بن الخطاب وعبدالله بن عمرو بن العاص ونظراؤهم من فقهاء بني أمية.

وبين هذا الاتجاه وذلك الاتجاه... برّز هؤلاء الفتية من أهل بيت الحسين عليه السلام وأصحابه وعلى رأسهم، وفي مقدمتهم الحسين عليه السلام يعلنون الاتجاه الثالث الذي دعا إليه الحسين عليه السلام وأصحابه يومذاك.

وعندما دعا الحسين عليه السلام الناس للخروج الى قتال يزيد، لم يستجب له من المسلمين إلأ عدد قليل آثروا القتل على العافية، ونهضوا مع الحسين ينكرون على بني أمية، الفساد والظلم والبدع التي ادخلوها في الإسلام... أما عامّة المسلمين فقد أخلدوا الى العافية، وأخذوا بالاتجاهين الذين كان يدعو إليه عبدالله بن عمر ونظرائه من (فقهاء العافية).

ويعجب الإنسان كيف غاب من فقهاء المسلمين ومن التابعين وأبناء الصحابة الآيات المحكمة من الكتاب الداعية الى الأمر بالمعروف والناهية عن المنكر، والرادعة عن الرضوخ للظالمين، والأحاديث الصحيحة المروية عن رسول الله صلى الله عليه وآله في هذا المضمون.

وهذا الوعي الفقهي والسياسي من أبرز خصائص أصحاب الحسين عليه السلام.

١- صحيح مسلم٦: ٢٢، كتاب الأمارة باب الأمر بلزوم الجماعة، ط دار الفكر.

أصدق الناس في التعامل مع الله

وكان أصحاب الحسين عليه السلام من أصدق الناس مع الله تعالى.

ونقصد بالصدق التطابق بين القول والعمل.

وإمارة هذا الصدق في سلوك أصحاب الحسين عليه السلام ثباتهم مع الحسين عليه السلام في هذا الطريق، من غير تردد، ولا تلكأ، الى أن لقوا الله تعالى.

فلم يدعهم الحسين عليه السلام الى مال أو سلطان أو نصر، وإنما أعلن لهم منذ أوّل يوم في بيانه الأوّل الذي أعلنه للمسلمين اعلاناً في مكة قبل مغادرته الحجاز الى العراق، انه قادم الى الموت، وليس الى ملك وسلطان ونصر.

رُوي أنه خطب الناس عشية مغادرته مكة الى العراق فقال:

«خطّ الموت على ولد آدم مخط القلادة على جيد الفتاة، وما أولهني الى أسلافي اشتياق يعقوب الى يوسف، وخُيِّر لي مصرع أنا لاقيه، وكأنّي بأوصالي تقطعها عُسلان الفلوات بين النواويس وكربلاء... لا محيص عن يوم خط بالقلم، رضا الله رضانا أهل البيت نصبر على بلائه، ويوفينا أُجور الصابرين»[1].

ولا أعرف قائداً، غير الحسين عليه السلام يدعو أصحابه الى الموت، فقد يدعوا القادة أصحابهم الى أن يوطنوا أنفسهم للموت في طريق تحقيق النصر، ولكن الحسين عليه السلام لم يلمح الى أصحابه بالنصر قط. وطلب منهم أن يوطّنوا أنفسهم للقاء الله... وأعلمهم أنه لا يرجو في حركته هذه إلاّ الموت.

وتكرر منه هذا التلميح والإشارة، وقبل أن يدخل كربلاء، استرجع عليه السلام وكرّر ذلك وقال: «إنّا لله وإنّا إليه راجعون» فسأله ولده علي الأكبر عن استرجاعه، فقال: إنّي خفقت برأسي، فعنّ لي فارس، وهو يقول: القوم

١- المسائل العكبرية للمفيد: ٧١، مثير الأحزان لابن نما: ٢٩، كشف الغمة ٢: ٢٣٩.

يسيرون والمنايا تسري إليهم، فعلمت أنها أنفسنا نعيت إلينا.

فقال علي الأكبر: لا أراك الله سوءاً، ألسنا على الحق؟ قال: بلى والذي إليه مرجع العباد، فقال: يا أبت، إذن لا نبالي أن نموت محقين، فقال عليه السلام: جزاك الله من ولد خير ما جزى ولداً عن والده»[١].

ولم يزل يطلب النصر ممن يلقاه في الطريق، فإذا اعتذر إليه بعذر يوصيه أن يبتعد عن هذا المشهد، ويقول له: «ان استطعت أن لا تسمع صراخنا، ولا تشهد وقعتنا فافعل، فوالله لا يسمع واعيتنا أحد، ولا ينصرنا إلاّ أكبّه الله في النار»[٢].

ولم يزل يكرر على أصحابه أنهم مقبلون على الموت الى ليلة مصرعهم في كربلاء.

ولم يزل يجعلهم في حلّ من بيعته حتى ليلة العاشر من محرم، خرج عليه السلام في جوف الليل يتفقّد التلاع والعقبات، فتبعه نافع بن هلال، فسأله الحسين عليه السلام عما أخرجه؟ قال: يا بن رسول الله أفزعني خروجك الى جهة معسكر هذا الطاغي، فقال له الحسين: اني خرجت أتفقد التلاع والروابي مخافة أن تكون مكمناً لهجوم الخيل يوم تحملون ويحملون.

ثم رجع عليه السلام، وهو قابض على يد نافع، ويقول: هي هي والله، وعد لا خلف فيه.

ثم قال: ألا تسلك بين هذين الجبلين في جوف الليل، وتنجو بنفسك... فقال نافع ثكلتني أُمي أن تركتك إن سيفي بألف وفرسي مثله. فوالله الذي

١- تاريخ الطبري٦: ٢٣١.

٢- مقتل الحسين عليه السلام للسيد عبدالرزاق المقرم: ٢٠٤، ٢٠٥، عن خزانة الأدب١: ٢٩٨.

مَنَ بك عليّ لا افارقنك حتى يكلاَ عن فري وجري»[١].

وفي ليلة العاشر جمع الحسين عليه السلام أصحابه وأهل بيته، وقال لهم:

«ألا واني قد أذنت لكم فانطلقوا جميعاً في حل، ليس عليكم مني ذمام، هذا الليل قد غشيكم فاتخذوه جملاً، ثم ليأخذ كل رجل منكم بيد رجل من أهل بيتي، ثم تفرقوا في سوادكم ومدائنكم، حتى يفرج الله، فإن القوم إنّما يطلبوني، ولو قد أصابوني للهو عن طلب غيري».

فقال له إخوته وبنو أخيه وأبناء عبدالله بن جعفر: ولِمَ نفعل ذلك؟ لنبقى بعدك. لا أرانا الله ذلك ابداً.

وقام إليه مسلم بن عوسجة رحمه الله يقول: أما والله لو لم يكن معي سلاح أُقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة، والله لا نخليك حتى يعلم الله إنّا قد حفظنا غيبة رسول الله فيك.

وقام زهير بن القين رحمه الله، فقال: والله اني وددت أنني قتلت ثم نشرت ثم قتلت حتى أُقتل هكذا ألف مرة، وان الله عزّ وجلّ يدفع بذلك عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتية من أهل بيتك.

وقال الحسين عليه السلام لمحمد بن البشير الحضرمي، وقد أُسر ابن له في ثغر ري: رحمك الله أنت في حل من بيعتي فأعمل في فكاك ابنك. فقال: أكلتني السباع حيّاً إن فارقتك»[٢].

ومع كل هذا التصريح بالقتل، والتأكيد لهم بأنهم في حل من بيعته، لم

١- مقتل الحسين عليه السلام للسيد عبدالرزاق المقرم: ٢٤٠ ـ ٢٤١.

٢- نفس المهموم للمحدث القمي: ٢٢٨ ـ ٢٢٩، تحقيق الشيخ رضا استادي، نقلاً عن مجموعة من المصادر: ٢٢٧ ـ ٢٢٨.

يتراجع منهم أحد، ولم يدخل قلب أحدهم ريب، وثبتوا معه الى الموت.

فقال لهم الحسين عليه السلام: **«اني لا أعرف أصحاباً أوفى من أصحابي، ولا خيراً من أصحابي، ولا أهل بيت أبرّ ولا أوصل من أهل بيتي، فجزاكم الله عني خيراً»**[1].

ولم يختص هذا الصدق في التعامل مع الله، وفي الصبر في لقاء العدو بالرجال، فقد كان النساء كالرجال صلابة وعزماً وصبراً.

تطلب أُم وهب في كربلاء، من ابنها وهب أن ينصر ابن بنت رسول الله، فيقول: أفعل يا أُماه ولا أقصّر، ثم يرجع إليها بعد أن قتل منهم مقتله، فيقول: يا أُماه أرضيت؟ فتقول له: ارجع فقاتل بين يدي ابن بنت رسول الله، فيقاتل حتى يقتل، فتذهب زوجته حتى تمسح الدم عن وجهه، فيبصر بها شمر فأمر غلاماً له فضربها بعمود كان معه فشدخها وقتلها[2].

وكان وهب نصرانياً أسلم هو وأُمه على يد الحسين عليه السلام فاتبعه الى كربلاء.

رحم الله أصحاب الحسين في كربلاء رجالاً ونساءً، شيوخاً وكهولاً، وشباباً ومراهقين، كانوا جمعاً من ذوي العزم والبصيرة والصدق ولا نستثني منهم المراهقين والصبية.

وقد كان القاسم بن الحسن بن علي عليهما السلام يومئذ صبيّاً في عمر المراهقة سأل عمّه الحسين عليه السلام ليلة العاشر عندما منّى أصحابه القتل صبيحة تلك الليلة، فقال وأنا فيمن أُقتل يا عم؟ فاشفق عليه الحسين عليه السلام، وقال له: كيف الموت عندك؟ فقال: يا عم أحلى من العسل. فقال له الحسين: أي والله

١- نفس المهموم: ٢٢٧.

٢- بحار الأنوار ٤٥: ١٧، المناقب للخوارزمي ٤: ١٠١.

فداك عمّك، انّك لأحد مَن يقتل، وابني عبدالله (الرضيع)، فقال: ياعم ويصلون الى النساء حتى يقتل عبدالله، وهو رضيع...[١]

أكثر الناس بصيرة وشجاعة وثباتاً

وليس أدل على ذلك من شهادة أعدائهم.

لما أكثر أصحاب الحسين القتل في أهل الكوفة وفزع أهل الكوفة من بأس أصحاب الحسين عليه السلام وسطوتهم صاح عمرو بن الحجاج ـ كما يقول الطبري ـ بأصحابه، وقال: أتدرون من تقاتلون؟ تقاتلون فرسان المصر، وأهل البصائر، وقوماً مستميتين، لا يبرز إليهم أحد منكم، إلاّ قتلوه على قلّتهم، والله لو لم ترموهم إلاّ بالحجارة لقتلتموهم.

فقال عمر بن سعد: صدقت، الرأي ما رأيت. أرسل في الناس من يعزم عليهم أن لا يبارزهم رجل منهم، ولو خرجتم إليهم وُحداناً لأتوا عليكم[٢].

إنّهم كانوا قوماً مستميتين، كما يقول عمرو بن الحجاج، والمستميت يقذف بنفسه على الموت، ولا يهرب من الموت، والذي يقذف بنفسه في لهوات الموت لا يمكن أن يثبت له الذي يهرب من الموت.

ولذلك كان التكافؤ مفقوداً بين أصحاب الحسين عليه السلام وجيش ابن زياد، حتى شاع الذعر والخوف فيهم، فنصحهم عمر بن الحجاج أن لا يبرزوا إليهم وحداناً.

وقيل لرجل شهد الطف مع ابن سعد: ويحك أقتلتم ذرّية الرسول؟ فقال: عضضت بالجندل انّك لو شهدت ما شهدنا لفعلت ما فعلنا. ثارت

١- نفس المهموم للمحدث القمي: ٢٣٠.

٢- تاريخ الطبري٦: ٢٥٥ .

علينا عصابة أيديها على مقابض سيوفها كالأسود الضارية تحطم الفرسان يميناً وشمالاً، تلقي نفسها على الموت، لا تقبل الأمان، ولا ترغب في المال، ولا يحول حائل بينها وبين المنيّة، أو الاستيلاء على الملك، فلو كففنا عنها رويد، لأتت على نفوس العسكر بحذافيرها، فماذا كنّا فاعلين لا أُمّ لك»[1].

وعابت زوجة كعب بن جابر عليه، فقال: أعنت على ابن فاطمة، وقتلت سيّد القرّاء (برير) لقد أتيت عظيماً من الأمر؛ والله لا أُكلّمك كلمة واحدة، فقال يخاطبها:

ولم تر عيني مثلهم في زمانهم ... ولا قبلهم في الناس اذ أنا يافع
أشد قراعاً بالسيوف لدى الوغى ... ألا كل من يحمي الذمار مقارع
وقد صبروا للضرب والطعن حسرة ... وقد نازلو لو ان ذلك نافع[2]

وعن هؤلاء يقول الإمام الباقر عليه السلام: «ان أصحاب جدي الحسين لم يجدوا ألم مس الحديد»[3].

أخلص الناس لله وأكثرهم يقيناً

وأخيراً كان الحسين عليه السلام وأصحابه من أخلص الناس لله، وأنقاهم نية في هذه المواجهة الضارية في سبيل الله...

ولم يدعهم الحسين عليه السلام في مكة الى مال أو سلطان، ولكن دعاهم أن يوطّنوا أنفسهم للقاء الله: «ألا ومن كان باذلاً فينا مهجته، موطّناً على لقاء

١- شرح النهج لابن أبي الحديد١: ٣٠٧.

٢- تاريخ الطبري٦: ٢٤٧.

٣- مقتل الحسين عليه السلام للمقرّم: ٥٣.

الله نفسه فليرحل معنا، فإنّي راحل مصبحاً إن شاء الله»[١].

وقتلوا على يقين بالله، واليقين من أعزّ ما قسم الله تعالى بين عباده من نعمة ومواهب، ولقد كان أصحاب الحسين من أصحاب اليقين.

وهازل (برير) عبدالرحمن الأنصاري، فقال له عبدالرحمن:

ما هذه ساعة باطل، فقال برير: لقد علم قومي ما أحببت الباطل كهلاً ولا شاباً، ولكني مستبشر بما نحن لاقون. والله ما بيننا وبين الحور العين، إلاّ أن يميل علينا هؤلاء بأسيافهم، ولوددت أنهم مالوا علينا الساعة[٢].

وخرج حبيب بن مظاهر يضحك، فقال له يزيد بن الحصين: ما هذه ساعة ضحك، فقال حبيب: وأي موضع أحق بالسرور من هذا الموضع؟ ماهو إلاّ أن يميل علينا هؤلاء بأسيافهم، فنعانق الحور العين[٣].

ويقول الحسين عليه السلام في ساحة الطف يوم عاشوراء، وقد كثر القتل في أصحابه وأهل بيته عليهم السلام: «اللهمّ إن كان هذا يرضيك فخذ حتى ترضى».

وينظر عليه السلام الى ما حل به وبأهل بيته وأصحابه وحرمه من المآسي فيقول مستسلماً لإرادة الله، راضياً بقضاء الله وحكمه: «هوّن ما نزل بي أنه بعين الله»[٤].

وتقف زينب بنت علي عليه السلام على جسد أخيها، محزوز الرأس مقطع الأعضاء، فترفع رأسها الى السماء، فتقول: «اللهمّ تقبّل منا هذا القربان»[٥].

والرجز الذي كان يرتجز به أصحاب الحسين عليه السلام يوم عاشوراء يحمل

١- تاريخ الطبري٦: ٢٤١.

٢- المصدر السابق.

٣ـ اختيار معرفة الرجال للطوسي١: ٢٩٢.

٤ـ مقتل الحسين عليه السلام للمقرّم: ٣٤٣.

٥ـ الكبريت الاحمر ٣: ١٣.

مفاهيم رفيعة في الاخلاص والايقان وابتغاء مرضاة الله وحب الله والبراءة من أعداء الله...

ولنستمع الى بعض هذا الرجز:

يرتجز عمر بن خالد الأزدي من أصحاب الحسين عليه السلام فيقول:

اليك يا نفس الى الرحمن فأبشري بالروح والريحان
ما خُطّ في اللوح لدى الديان لا تجزعي فكل حيٍّ فان

ويقول ابنه خالد رحمه الله:

صبراً على الموت بني قطحان كيما تكونوا في رضى الرحمن

ويبرز سعد بن حنظلة التميمي من أصحاب الحسين عليه السلام فيرتجز:

صبراً على الأسياف والأسنَة صبراً عليها لدخول الجنة[1]

ويرتجز القاسم بن الحسن (المراهق):

لا تجزعي نفسي فكل فاني اليوم تلقين ذوي الجنان[2]

ويرتجز العباس بن علي بن أبي طالب عليه السلام بعد أن قطعوا يمينه فيقول:

والله إن قطعتمُ يميني إنّي أُحامي أبداً عن ديني

ولما قطعوا يساره ارتجز قائلاً:

يا نفس لا تخشي من الكفار وابشري برحمة الجبّار
مع النبي السيد المختار قد قطعوا ببغيهم يساري
فاصلهم يا ربّ حرّ النار[3]

١ـ لواعج الاشجان للسيد محسن الامين العاملي : ١٦٠ـ١٦١.

٢ـ المصدر السابق : ١٧٥.

٣ـ المناقب لابن شهرآشوب ٣: ٢٥٦.

يستمع الإنسان الى هذا الرجز في ساعة الحرب، في أحرج ساعة في حياة الإنسان، وهو يواجه الموت، ويراه بعينه، فلا يرى غير الاخلاص واليقين، والثقة المطلقة بالله، والتسليم لقضائه وقدره والرضا بأمره، وابتغاء مرضاته، والشوق الى لقائه، والأنس بمناجاته، والوجد والهيام والحب.

ويقارن الإنسان كل هذا الوجد والهيام والحب والشوق والتسليم والرضا بالله في أصحاب الحسين عليه السلام يوم عاشوراء، الى ما كان يجده في الصف المقابل له في هذه الساحة فيجد اللؤم والشحّ والحقد والجبن، وابتغاء عرض الدنيا والتهالك عليه... فيعجب الإنسان في هذا اللقاء العجيب بين هذين المعسكرين المتحاربين، فاستمع الى سنان بن أنس جاء الى ابن زياد، وهو يرجو الجائزة لقتله الحسين عليه السلام فيقول:

أوقر ركابي فضة أو ذهبا ... إنّي قتلتُ السيد المهذبا

قتلتُ خير الناس أُماً وأبا ... وخيرهم إذ ينسبون نسباً[1]

ويقول عمر بن سعد، وهو يعيش حالة القلق النفسي السّي، والصراع المرير في عمق ضميره، عندما عرض عليه ابن زياد قتال الحسين عليه السلام مقابل ولاية الري:

أأترك ملك الري والري منيتي ... أم أرجع مأثوماً بقتل حسين

وفي قتله النار التي ليس دونها ... حجاب، وملك الري قرة عيني[2]

يقارن الإنسان بين هذا المعسكر وذاك، وما يختزنه كل منهما من القيم

١ـ مقتل الحسين عليه السلام ٢: ٦٠، تسلية المجالس وزينة المجالس ٢: ٣٧٩، البحار ٢٥: ١٢٧، العوالم ١٧: ٤٢٧.

٢- الكامل لابن الأثير ٣: ٢٨٣.

وأضداد القيم، فيعجب الإنسان من هذا الفاصل الشاسع والتناقض في القيم والأصول بين هذا المعسكر وذاك، يقول السيد ابن طاوس رحمه الله:

وبات أصحاب الحسين عليه السلام ليلة عاشوراء، ولهم دويّ كدويّ النحل، ما بين راكع وساجد وقائم وقاعد[١].

ويروي الطبري هذه المناجاة عن الحسين عليه السلام في تلك الساعات العصيبة من المواجهة والقتال:

«صبراً على قضائك يا ربّ، لا إله سواك، يا غياث المستغيثين، مالي يارب سواك، ولا معبود غيرك، صبراً على حكمك.

يا غياث من لا غياث له، يا دائماً لا نفاذ له، يا محيي الموتى، يا قائماً على كل نفس بما كسبت أحكم بيني وبينهم وأنت خير الحاكمين»[٢].

وكان من مناجاته عليه السلام يوم عاشوراء:

«اللهم أنت ثقتي في كل كرب، ورجائي في كل شدّة، وأنت لي في كل أمر نزل بي ثقة وعدة. كم من همّ يضعف فيه الفؤاد، وتقلّ فيه الحيلة، ويخذل فيه الصديق، ويشمت فيه العدو، أنزلته بك، وشكوته إليك، رغبة مني إليك عمّن سواك فكشفته وفرّجته، فأنت ولي كل نعمة، ومنتهى كل رغبة»[٣].

١ـ اللهوف : ٥٧.

٢ـ الطبري ٥: ٤٥٢.

٣ـ الكامل لابن الأثير ٤: ٢٥، تاريخ ابن عساكر ٤: ٣٣٣، وذكره الكفعمي في المصباح أنه كان من دعاء رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر.

المرحلة الثانية لثورة الحسين عليه السلام: الخطاب

بدأ أهل البيت عليهم السلام هذه المرحلة عند دخولهم الى الكوفة حيث أعد الطاغية ابن مرجانة لهم استقبالاً للتشهير والتسقيط، فأحبط الله تعالى كل ذلك بخطاب علي بن الحسين وزينب وأخواته عليهم السلام.

وعندما يعرف الإنسان ما بذل الطاغية وأعدّ لهذا المشهد من مال وإعداد، يعجب كيف أحبط الله تعالى كل هذا الإعداد والبذل بكلمات علي بن الحسين وزينب وفاطمة عليهم السلام، وهم أسرى وسبايا يومئذ بيد الطاغية.

وتوالت حلقات الخطاب منذ ذلك الحين الى اليوم، ورافق التأييد والإسناد الإلهي لهذا الخطاب في كلّ مراحله في مواجهة الطغاة والجبابرة في التاريخ.

ولسنا نريد الآن أن نتحدث، حتى بالإيجاز عن هذا الخطاب، وحلقاته ودوره في تاريخ الإسلام، فسوف يوافينا الحديث عنه قريباً إن شاء الله.

المرحلة الثالثة لثورة الحسين عليه السلام: الثأر

وهي المرحلة الأخيرة من مراحل الثورة الثلاثة، وليس معنى ذلك أنها مرحلة متأخرة زمنياً عن مرحلة الخطاب، فإنّ الثأر والخطاب يتقدمان مع بعض، وقد بدأ الثأر منذ الأشهر الأولى من مقتل الحسين عليه السلام، وتولّى المختار الثقفي رحمه الله أمر الثأر بعد فترة قصيرة من يوم عاشوراء.

ولكن هذه المرحلة هي نتيجة وافراز الخطاب، والثأر يتكون في رحم الخطاب، إلاّ أنهما يتقدمان مع بعض في التاريخ.

ولدينا أربعة أسئلة:

١ ـ ماهو الثأر؟

٢ ـ ومن هو الثائر؟

٣ ـ ومن هم القتلة الذين نثأر منهم؟

٤ ـ وكيف يكون الثأر؟

وإليك هذه الأسئلة الأربعة بأجوبتها:

١. ماهو الثأر؟

في زيارة الحسين عليه السلام نقرأ: «السلام عليك يا ثار الله» فما هو الثأر؟

الثأر: الانتقام من الظالم، وهذا حكم الله تعالى في القرآن، وهو حقّ طبيعي وفطري لولي الدم على القاتل، وقد أقرّ القرآن هذا الحقّ الطبيعي

لولي الدم، يقول تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً﴾[١].

وقد جعل الله تعالى للدم حرمة في هذا الدين، وهو من أعظم حرمات الله تعالى على وجه الأرض.

ولكل دم يهراق ظلماً في الإسلام ثأر، يتولأه وليّ الدم، ودماء الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه أُريق ظلماً وعدواناً بكربلاء. فلابد لها من ثأر ولابد لها من ثائر يتولّى الثأر، بحكم القرآن والفطرة الإنسانية. وقد كان العرب في الجاهلية يتجاوزون في الثأر الحدود المعقولة العادلة، حتى أن مهلهل قتل بأخيه كليب من بكر بن وائل مقتلة كبيرة، حتى كاد أن يفنيهم، فجاء الإسلام وشرّع القصاص والمساواة والعدالة في الثأر والقصاص، يقول تعالى: ﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلا يُسْرِف فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُوراً﴾[٢].

ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالأُنْثَى بِالأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾[٣].

٢ ـ ومن هم الثائرون؟

لقد كان الدم في حياة العرب في الجاهلية قبل الإسلام مسألة اجتماعية تعمّ قبيلة القاتل وقبيلة المقتول، وليست مسألة شخصية تخص شخص القاتل وولي المقتول، فإن العدوان بإراقة الدم، عدوان من ناحية قبيلة القاتل

١ـ البقرة: ٣٣.

٢ـ الإسراء: ٣٣.

٣ـ البقرة: ١٧٨.

كلّها على قبيلة المقتول كلها. ولذلك كان يحق لكل فرد من قبيلة المقتول أن يقتل ـ بهذا الدم ـ أي فرد من قبيلة القاتل. لأن الدم مسألة اجتماعية تخص القبيلة كلها، وعلى الجميع ان يعملوا لحماية دمائهم، والثأر من القاتل أو القبيلة التي تؤوي القاتل وتتبناه.

ولهذا الفهم أصل في الإسلام، ولكن الإسلام أجرى تعديلاً كثيراً وتهذيباً لمسألة الدم والثأر كما سنوضّح.

يقول تعالى: ﴿مِن أَجْلِ ذلكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْساً بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعاً﴾[1].

وذلك لأن العدوان على فرد، عند الله، عدوان على الجميع: ﴿فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعاً﴾.

ولكن الإسلام قام بتهذيب وتعديل واسع لنظام (الثأر)، فخصّ القصاص بشخص القاتل، ومن ناحية ولي المقتول ليمنع من الفوضى الاجتماعية في حياة الناس. وفي حادثة عاشوراء ومصرع الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه لمسألة (الثأر) حالة متميّزة على الدماء التي تراق في قضايا وخلافات شخصية أو عائلية أو قبلية...

فإنّ هذا أُهريق في الدفاع عن التوحيد والعدل، وعن دين الله وشريعته، فقد كان بنوأُمية يعملون لتغيير معالم هذا الدين، فيحلّون أعراف الجاهلية وأخلاقها وقواعدها محل الإسلام، ويعملون لتغيير المواقع الاجتماعية والسياسية في هذا الدين ليستعيد أبوسفيان ومعاوية ويزيد مواقعهم الذي

١- المائدة: ٣٢.

سلبه عنهم الإسلام، ولتعود الطبقة المترفة المستكبرة الفاسدة محل الطبقة الصالحة المستضعفة.

فكانت ثورة الحسين عليه السلام للمحافظة على معالم دين الله ومواقعه، وللمحافظة على التوحيد والعدل في حياة الإنسان.

والمسألة هنا تختلف عن مسألة الثأر في سائر الدماء الفردية، وحتى القبليّة.

فإنّ الدم هنا يتعلق بالأُسرة المؤمنة الصالحة وهي كل من آمن بالله ورسوله، ووقف مع الحسين، أو رضي بموقف الحسين عليه السلام وتمنّى أن يكون معه، وليست هي أُسرة بني هاشم فقط، بل تشمل هذه الأُسرة كل من رضي بعمل الحسين عليه السلام وتمنّى أن يكون معه، كان يعيش قبل الحسين عليه السلام أو في عصره أو من بعده.

والعدوان حاصل من قبل الأسرة الظالمة المعتدية، وهي ليست بني أُمية فقط، وإنّما يشملهم وكل من اشترك معهم في الجريمة وأسندهم، ورضي بفعلهم، ولم ينكر عليهم، وهم كثيرون، ويعيشون الى اليوم. وهذا هو تعريف الأُسرة في دائرة الولاء والبراءة.

والقتل هنا من قبل الأسرة الظالمة على الأُسرة الصالحة بالمعنى الواسع لهذه الكلمة، وليس هذا القتل من فرد على فرد ولا من قبيلة على أُخرى، وكذلك الثأر ليس هنا حقاً فردياً، وإنّما هو حق للأُسرة الصالحة على الأُسرة الظالمة.

وهكذا يكون الأمر عندما يكون الصراع بين الحقّ والباطل، والإسلام والجاهلية، وليس بين فرد وفرد على شأن من شؤون الدنيا، أو بين عشيرة

وأخرى، أو بين دولة ودولة على قطعة من الأرض أو نهر من الماء.

وأولياء الثأر في مقتل الحسين، على هذا التعريف ثلاثة:

الثائر الأول: هو الله تعالى، ولي الذين آمنوا: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾[١].

وقد وردت في زيارة الحسين عليه السلام هذه الكلمة: «**السلام عليك يا ثار الله وابن ثاره**».

ومعنى ثار الله، ان الله تعالى هو الذي يتولّى الثأر لهذا الدم من القتلة، كما أن الله تعالى هو الذي يتولّى الثأر لدم أبيه من قبل: «**ثار الله وابن ثاره**».

وهذا المفهوم ينبع من الفهم الشمولي الإسلامي (للتاريخ) و(المجتمع) و (الصراع).

والثائر الثاني: هو عميد هذه الأسرة، حفيد الحسين عليه السلام الذي بشّر بظهوره رسول الله صلى الله عليه وآله، فيما اتفق عليه المسلمون وهو المهدي من آل محمد عجّل الله لنا فرجه، إذا ظهر يخاطب البشرية، فيقول: «**يا أهل العالم، إنّ جدي الحسين عليه السلام قتل عطشاناً**»[٢].

والثائر الثالث: عامّة المؤمنين الصالحين من أعضاء هذه الأسرة الكبيرة، وأُولئك هم السائرون على خط الحسين عليه السلام، والذين يتمنون صادقين لو كانوا مع الحسين عليه السلام، وأُولئك هم الذين يرثون هذا الميراث عن الحسين عليه السلام كما ورث الحسين عليه السلام هذا الميراث عن سلفه من الأنبياء وأوصيائهم عليهم السلام.

١ـ البقرة: ٢٥٧.

٢ـ إلزام الناصب للحائري ١: ١٣٨.

٣ . والسؤال الثالث: مَن هُم القتلة الذين نثأر منهم؟

وبنفس المقياس نستطيع أن نفهم القتلة الذين نثأر منهم. إن من الخطأ بناءً على المقياس الحضاري السابق، في فهم التاريخ والمجتمع والصراع؛ أن نحصر القتلة في الذين قاتلوا الحسين عليه السلام في كربلاء عام (٦١ هـ)، إنّ القتلة أُمة كبيرة من الناس في التاريخ والمجتمع، وتلك الشريحة التي حضرت كربلاء، لا تزيد على أن تكون شريحة ممثلة لهذه الأُمة.

ولهذه الأُمة ثلاث أبعاد ترسمها زيارة (وارث) المشهورة بشكل دقيق:

«لعن الله أُمة قتلتك، ولعن الله أُمة ظلمتك، ولعن الله أُمة سمعت بذلك فرضيت به».

فهم ثلاثة طوائف:

الطائفة الأولى: الجماعة التي حضرت كربلاء عام (٦١ هـ) لقتال الحسين وهم جماعة محدودة بطبيعة الحال.

والطائفة الثانية: الجماعة التي أسندت ودعمت وأيّدت أُولئك القتلة، وهؤلاء هم الذين مارسوا ظلماً للحسين عليه السلام، وهم جماعة أوسع من الجماعة الأولى.

والطائفة الثالثة: الجماعة التي رضيت بفعلهم، وهم جماعة واسعة لا ينتظمها مكان ولا زمان، وإنّما هم على أمتداد التاريخ والجغرافيا.

إذن، فإنّ القتلة يشكّلون خطّاً من الولاء والبراءة والثقافة في التاريخ ولا يمكن حصرهم في الذين حضروا كربلاء لقتال الحسين في محرم سنة (٦١ هـ)، كما أن الثائرين للحسين عليه السلام يشكّلون خطاً من الولاء والبراء والانتماء والثقافة في التاريخ.

يقول محمد بن الأرقط: جئت أبا عبدالله عليه السلام في المدينة، قال: تنزل الكوفة؟ قلت: نعم.

قال: فترون قتلة الحسين بين أظهركم، قلت: جعلت فداك ما رأيت أحداً منهم.

قال: فإذن أنت لاترى القاتل إلاّ من قتل أو وُلي القتل، ألم تسمع قول الله عزّ وجل: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾[1].

فأي رسول قتل الذين كان محمد صلى الله عليه وآله بين أظهرهم ولم يكن بينه وبين عيسى عليه السلام رسول، وإنّما رضوا قتل أُولئك فسُمّوا قاتلين[2].

إذن فإن الأُسرة المعتدية ليست هي الأُسرة التي وُليت القتل، وإنّما يشترك معهم في الجريمة وينتمي إليهم كل من رضي بالجريمة منذ ذلك اليوم.

وعندما نقول في زيارة الحسين عليه السلام (في يوم عاشوراء): «رزقنا الله ثأركم مع إمام منصور» نقصد بالثأر ومن نثأر منهم هذا المعنى الشامل الواسع.

وهذا المفهوم يبلور درجة عالية من وعي التاريخ والمجتمع، والولاء والبراءة.

وهذه الأُمة قائمة في كل مكان وفي كل زمان، وما دامت هذه الأُمة قائمة في واقع حياة الناس، فإنّ الصراع بين الحق والباطل قائم، والفتنة قائمة.

١ـ آل عمران: ١٨٣.

٢- تفسير البرهان ١: ٣٢٨.

٤. كيف يكون الثأر؟

وهذا هو السؤال الرابع والأخير؟

إنّ الثأر هنا ليس فقط انتقاماً من القتلة الذين حضروا كربلاء، ولا الظالمين الذين أسندوهم يومئذ فأُولئك في الدرك الأسفل من النار.

وإنّما هو انتصار خط على خط وحضارة على أُخرى، وثقافة على ثقافة.

إنّ الصراع من صراع الحضارات والولاءات والثقافات، ولذلك، الثأر يكون من نوع الصراع، إنّ الحسين عليه السلام لم يخرج ليطلب سلطاناً وملكاً لنفسه وللجماعة التي رافقته، وإنّما خرج ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ولذلك فإنّ الثأر في الانتصار للمعروف على المنكر، وفي ازالة المنكر، وتصفيته عن وجه الأرض. وهي قضية واسعة شاملة.

ومقتل الحسين عليه السلام حلقة من سلسلة طويلة من الجرائم التي ارتكبها أئمة الجور لإعاقة حركة التوحيد والعدل والمعروف على وجه الأرض، ولكن الله تعالى شاء أن يجعل من مصرع الحسين عليه السلام رمزاً لصراع الحقّ والباطل، وان تكون ثارات الحسين عليه السلام رمزاً لثأر الصالحين من الظالمين في التاريخ.

ولا يزال أئمة الجور يعملون لاعاقة حركة التوحيد والمعروف في التاريخ ويقتلون العاملين بالمعروف، ولا يزال الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر يواجهون هذه العوائق بالعمل والتضحية، ولا يزال الصراع قائماً، وتتوالى حلقات النصر في التاريخ، وكل انتصار للحق على الباطل يحقّق شطراً من هذا الثأر حتى يرث الصالحون كل مواقع القوّة على وجه الأرض من الظالمين: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا

عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾[1] وذلك عندما يظهر الإمام المهدي من آل محمد ﷺ، فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً وتوحيداً، كما تواترت بذلك روايات الفريقين عن رسول الله ﷺ.

وذلك هو خاتمة الثأر، والإمام المهدي ﷺ خاتمة الثائرين في التاريخ ينصره الله على الباطل نصراً مبيناً كاملاً.

وهذه الرؤية الشاملة للصراع والنصر والثأر والميراث رؤية مقتبسة من القرآن يطول شرحها، ونكتفي الآن بما بينا من أُصول الرؤية القرآنية للتاريخ والمجتمع.

* * *

وهذه هي المرحلة الثالثة من شهادة الحسين ﷺ في كربلاء: تضحية نادرة، يتبعها خطاب، وينتهي الى الثأر من الظالمين.

ولا تزال حلقات الخطاب والثأر تتتابع وتتلاحق منذ مصرع الحسين ﷺ بكربلاء الى اليوم.

وفي كل انتصار للحق على الباطل يتحقق شطر من هذا الثأر العظيم، حتى يرث الصالحون الأرض ومن عليها، فيتحقق الثأر بالكامل لدماء شهداء كربلاء، على أعدائهم، ولكل الدماء التي أُريقت في الدفاع عن التوحيد والعدل والمعروف على يد الظالمين.

١ـ الانبياء: ١٠٥.

الفصل الثاني

تفصيل المرحلة الثانية من مراحل الثورة الحسينية

.الخطاب.

والآن بعد هذه الجولة في المراحل الثلاثة للشهادة نتحدث إن شاء الله بتفصيل عن المرحلة الثانية لشهادة الإمام الحسين عليه السلام، وهي مرحلة الخطاب.

وسوف نجد في دراسة هذه المرحلة: إنّ الطاغية يدرك أهمية هذه المرحلة وحساسيتها فهماً دقيقاً ويدرك أن الصراع لم ينته في مرحلة القتل والتصفية الجسدية للشهداء، وأن خطر هذه المرحلة عليه أشدّ من خطر المرحلة الأولى، ولئن خسر المعركة في هذه المرحلة، فسوف يخسر عرشه وسلطانه بالكامل، ويُعدُّ إعداداً كاملاً لخوض المعركة في هذه المرحلة لإخماد صوت الشهيد وخطابه، وخطاب الشهود الذين يخلفون الشهيد، كما قضى على أشخاصهم من قبل.

ولكن الله تعالى يفشل الطاغية فشلاً ذريعاً، ويحبط مكره وكيده وعمله، ويعود عليه بالخسران والخيبة.

فلننظر الى تفاصيل هذه المرحلة لشهادة الحسين عليه السلام.

المرحلة الثانية من مراحل الثورة: الخطاب

وتمتد مرحلة الخطاب من اليوم الذي يلي يوم عاشوراء، الى اليوم الحاضر، وسوف يمتدُّ هذا الخطاب حتى يستنفذ هذا الخطاب أهدافه،

وذلك عند قيام خاتم الثائرين من آل محمدﷺ بالمرحلة الأخيرة من الثأر لدماء الشهداء في الطف.

والعلاقة بين (الخطاب) و (الشهادة) كالعلاقة بين الثأر والخطاب، علاقة طبيعية في دائرة سنن الله في التاريخ والمجتمع، ذلك أن التضحية الصادقة من الشهيد تهزُ كل وتر في ضمير الإنسان، وتهزّ الإنسان من الأعماق، وتذيب جليد الجمود والركود في النفوس، إنّ صدق الشهيد وشجاعته والملحمة المأساوية التي يصنعها بدمه تبعث الصدق والشجاعة والاقدام في نفوس الآخرين.

وهنا يتحول (الدم) الى (الخطاب) ويتحول (الخطاب) الى (الدم)، ولا يزال هذا التعامل والتداول المتبادل بين الخطاب والدم يجري في حركة صاعدة حتى يتم الثأر، وهو سر علاقة الثأر بالخطاب... فإنّ الخطاب لا يزال يمنح الناس الوعي والنضج والصدق، و لايزال يتدفّق من الخطاب الدم، ومن الدم الخطاب، حتى يستأصلا الظلم والظالم من الجذور، وهذا هو الثأر الذي قلنا أنه المرحلة الثالثة والأخيرة من الشهادة.

ومحتوى هذا الخطاب ثابت دائماً.

الدعوة الى توحيد الله بالعبودية والطاعة والعبادة والاستعانة والتشريع والولاية والسيادة، ورفض كل ولاية وحاكمية وسيادة ودين ونظام في حياة الإنسان من غير إذن الله وأمره والدعوة الى العدالة ومكافحة الظلم والظالمين والطاغوت.

ولكن آليات هذا الخطاب وأشكاله تختلف من حين الى حين ومن حال الى حال. وأبرز هذه الآليات في الخطاب الحسيني بعد عاشوراء، مجالس

النياحة والعزاء، والمنبر، والشعر الرثائي، والاحتفاء بزيارة الحسين عليه السلام والأطوار الشعبيّة الدارجة المعبّرة في الأوساط الشيعية في النياحة والعزاء والزيارة.

ولا إشكال أنّ الرثاء والإلمام بالجانب المأساوي من حادث الطف جزء لا يتجزأ من الخطاب الحسيني، منذ اليوم الحادي عشر من المحرم عام (٦١ هـ) الى اليوم، وان الغاء هذا الجانب يساوي الغاء كل الخطاب الحسيني، ولا اشكال أن الاقتصار على الجانب المأساوي من هذا الخطاب يؤدّي الى تعطيل دور هذا الخطاب في حياتنا السياسية والثقافية، وتحرمنا بركات هذا الخطاب وآثاره.

وقد كان هذا الخطاب كان ولا يزال موضع مقت وكراهية الحكّام الجائرين منذ مقتل الحسين عليه السلام الى اليوم.

ولست أدري ماذا يجد هؤلاء الحكّام في الخطاب الحسيني من تهديد مبطَن أو ظاهر لعروشهم وسلطانهم وأساليبهم، فلا يطيقون هذا الخطاب، و لا تقرّ لهم عين إلاّ بالقضاء.

وقد بلغ هذا المقت والكره حدوداً غريبة لا يألفها الحكّام في أمثال هذه الأمور، فقد أمر هارون العباسي بكرب قبر الحسين عليه السلام ومنع الزائرين، وعقوبتهم، كما أمر المتوكل العباسي بكرب قبر الحسين عليه السلام للمرة الثانية وعقوبة الوافدين من البلاد لزيارة الحسين عليه السلام، وتعاقبت الرقابة المشدّدة على زيارة الحسين عليه السلام منذ العصر الأموي حتى العصر العباسي، ولا نعرف في التاريخ محاربة للزيارات مثل هذه الحرب الضارية التي أعلنها الحكّام من بني أُمية وبني العباس لزوّار قبر الحسين عليه السلام، ويقابل هذا الكره والمقت

المتزايد إقبالاً وإندفاعاً وحُبّاً من ناحية الجمهور للحسين عليه السلام وللخطاب الحسيني، وحزناً على مصرعه بالصورة المشجية التي حصلت في كربلاء، وبراءة من أعدائه الذين قاتلوه، ومن الذين يوالونهم عبر القرون.

قصة أبي بكر بن عياش والطاغية موسى بن عيسى

ولست أدري ماذا أودع الله في هذا الخطاب وفي هذه التضحية من التأثير والقوّة في اجتذاب الجمهور واستقطاب المشاعر والأحاسيس، فإنّ هذا الخطاب وتلك التضحية تزداد تألقاً وتأثيراً في الجمهور عاماً بعد عام، ولست أعرف في تاريخ الإسلام حدثاً يملك هذا التأثير والقوّة والخطاب القوي المؤثّر.

وقد شاء الله أن يجعل من حادث (الطف) رمزاً للتضحية والاخلاص لله ومقاومة الظالمين، ولهذا السبب يحمل خطاب الطف قوّة وتأثير كل خطاب في تاريخ الإسلام من هذا القبيل.

ويعجبني أن أروي هذه القصة التي يرويها ابن الشيخ الطوسي في الأمالي عن والده الشيخ أبي جعفر الطوسي رحمه الله مسنداً عن يحيى بن عبدالحميد الحمّاني قال: خرجت ـ أيّام ولاية موسى بن عيسى الهاشميّ الكوفة ـ من منزلي فلقيني أبوبكر بن عيّاش فقال لي: امضِ بنا يا يحيى الى هذا، فلم أدرِ مَن يعني، وكنت أُجلّ أبابكر عن مراجعته، وكان راكباً حماراً له، فجعل يسير عليه وأنا أمشي مع رِكابه، فلمّا صرنا عند الدار المعروفة بدار عبدالله بن حازم، التفت إليّ وقال: يابن الحمّاني، إنّما جررتك وجشّمتك خلفي لأُسمعك ما أقول لهذا الطاغية، قال: فقلت: من هو يا أبابكر؟ قال: هذا الفاجر الكافر موسى بن عيسى، فسكتُ عنه ومضى وأنا أتبعه حتى إذا صرنا

الى باب موسى بن عيسى وبصر به الحاجب وتبيّنه، وكان الناس ينزلون عند الرحبة فلم ينزل أبوبكر هناك، وكان عليه يومئذ قميص وإزار وهو محلول الأزرار قال: فدخل على حماره وناداني: تعال يابن الحمّاني، فمنعني الحاجب فزجره أبوبكر وقال له: أتمنعه يا فاعل وهو معي؟! فتركني، فمازال يسير على حماره حتى دخل الإيوان فبصُر بنا موسى و هو قاعد في صدر الإيوان على سريره، وبجنبتي السرير رجال متسلّحون وكذلك كانوا يصنعون.

فلمّا أن رآه موسى رحّب به وقرّبه وأقعده على سريره، ومُنعت أنا حين وصلت الى الإيوان أن أتجاوزه، فلمّا استقرّ أبوبكر على السرير التفت فرآني حيث أنا واقف فناداني فقال: ويحك، فصرت إليه ونعلي في رجلي وعليّ قميص وإزار، فأجلسني بين يديه، فالتفت إليه موسى فقال: هذا رجل تكلّمنا فيه؟ قال: لا ولكن جئت به شاهداً عليك، قال: في ماذا؟ قال: إني رأيتك وما صنعت بهذا القبر! قال: أيّ قبر؟ قال: قبر الحسين بن عليّ بن فاطمة بنت رسول الله صلّى الله عليهم أجمعين، وكان موسى قد وجّه إليه مَن كَرَبه وكرب جميع أرض الحائر وحرثها وزرع فيها الزرع، فانتفخ موسى حتى كاد أن ينقدّ ثم قال: وما أنت وذا؟ قال: اسمع حتى أُخبرك.

ثم ذكر لـه رؤيا طويلة تتضمن خروجه الى قومه بني غاضرة، وتعرّض عشرة خنازير عليه، وتخلّصه منها برجل من بني أسد، وسيره الى نينوى وتشرّفه بالحائر الشريف، وأنّ على الباب منه جماعة كثيرة فأراد الدخول قالوا: لا تقدر على الوصول في هذا الوقت لأنه وقت زيارة إبراهيم خليل الله ومحمد رسول الله صلوات الله عليهما وآلهما ومعهما جبرئيل وميكائيل في

رعيل[١] من الملائكة كثير، ثم انتبه وجرى له في اليقظة مثل ما رأى في النوم إلاّ أنّ الخنازير كانت في اليقظة عشرة من اللصوص، وفي دخوله الحائر لم يكن إذن ولا حائر.

قال له موسى: إنّما أمسكت عن إجابة كلامك لأستوفي هذه الحمقة التي ظهرت منك، وتالله إن بلغني بعد هذا الوقت أنّك تحدّث بهذا لأضربنّ عنقك وعنق هذا الذي جئت به شاهداً عليّ، فقال له أبوبكر: إذن يمنعني الله وإيّاه منك، فإنّي إنّما أردت الله بما كلّمتك به، فقال له: أتراجعني يا ماصّ؟! وشتمه، فقال له: اسكت أخزاك الله وقطع لسانك، فأزعل[٢] موسى على سريره ثم قال: خذوه، فأخذوا الشيخ عن السرير وأُخذت أنا، فوالله لقد مرّ بنا من السّحب والجرّ والضرب ما ظننت أننا لا نُكثر الإحياء أبداً، وكان أشدّ ما مرّ بي من ذلك أن رأسي كان يجرّ على الصخر، وكان بعض مواليه يأتيني فينتف لحيتي وموسى يقول: اقتلوهما ابنَيْ كذا وكذا ـ بالزاني ولا يكنّى ـ وأبوبكر يقول له: امسك قطع الله لسانك وانتقم منك، اللّهمّ إيّاك أردنا ولولد نبيّك غضبنا، وعليك توكّلنا، فصير بنا جميعاً الى الحبس فما لبثنا في الحبس إلاّ قليلاً، فالتفت إليّ أبوبكر ورأى ثيابي قد خُرقت وسالت دمائي فقال: يا حمّاني، قد قضينا لله حقّنا واكتسبنا في يومنا أجراً ولن يضيع ذلك عند الله ولا عند رسوله[٣].

ولعلّه لذلك كان شعار الطف شعار لكثير من الثورات التي حدثت في

١- الرعيل: القطعة من الخيل.

٢- أزعله: أي أزعجه.

٣- أمالي الشيخ الطوسي ١: ٣٢٩ ط النجف.

التاريخ الإسلامي في العهدين الأموي والعباسي، وبعدهما الى عصرنا الحاضر.

وقد تحوّل هذا الخطاب الى ثقافة ومواقف سياسية وحركية والى حركات وثورات وانتفاضات في التاريخ.. ولم يزل لهذا الخطاب دور وتأثير فاعل في نفوس الناس، وفي واقعهم السياسي الى هذا اليوم.

ولا تزال الأجيال تتسلّم هذا الخطاب جيلاً بعد جيل، فقد انتقل الخطاب في المرحلة الأولى بعد عاشوراء من ذمة الشهداء الى ذمة الشهود الذين شهدوا مصرع الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه وشهدوا الصراع على أرض الطف في يوم عاشوراء، شهدوا المعركة أم غابوا عنها.

وقد بذل الشهيد كل ما آتاه الله في أداء الرسالة ولم يدّخر لنفسه مالاً وولداً وجاهاً، إلاّ وبذله لله باخلاص.. فيخلفه الشاهد على أداء الرسالة بإذن الله.

وسوف نرى في هذا الحديث كيف تسلّم الأجيال مسؤولية هذا الخطاب جيلاً بعد جيل.

الفَصِلُ الثَالِثُ

مراحل الخطاب الحسيني بعد يوم عاشوراء

ولعلنا نستطيع أن ننظم أهم مراحل الخطاب في الفترة الأُولى بعد مصرع الحسين عليه السلام بالشكل التالي، حسب ما نقرأه في التاريخ.

المرحلة الأُولى في الكوفة.

المرحلة الثانية في الشام.

المرحلة الثالثة في المدينة المنوّرة.

ثم تشعّب الخطاب وتوسعت دائرته وتجاوز العراق والحجاز والشام وشمل العالم الإسلامي كلّه، ولم يتمكن بنواُمية، رغم كل الجهد السياسي والاعلامي والارهابي الذي بذلوه من ايقاف مدّ هذا الخطاب.

المرحلة الأُولى من خطاب الثورة الحسينية: في الكوفة

نظم ابن زياد طائفة من المشاهد للتشهير بأهل البيت عليهم السلام نفذ منها ثلاثة، ولم يتمكن من تنفيذ الباقي، وغُلب على أمره.

المشهد الأوّل

كان المشهد الأوّل في مدخل الكوفة، ويبدو أن ابن زياد قد أعدّ لاستقبال رؤوس الشهداء وسبايا آل رسول الله صلى الله عليه وآله مشهداً حافلاً للتسقيط والتشهير بهم في مدخل المدينة، وطلب من الناس أن يخرجوا خارج الكوفة لاستقبال الرؤوس والسبايا. وقد شهد هذا المشهد جصّاص كان ابن زياد قد كلّفه بتجصيص بعض أروقة قصره... يقول:

(بينما أنا أُجصص، وإذا بالزعقات قد ارتفعت من جميع الكوفة، فأقبلت على أحد خدّام القصر، فقلت له: مالي أرى الكوفة تضجّ؟

فقال: الساعة يأتون برأس خارجي على يزيد.

فقلت له: ومَن هذا الخارجي؟

فقال: الحسين بن علي.

يقول فتركت الخادم حتى خرج، وأخذت ألطم على وجهي حتى خشيت على عينيّ أن تذهبا، وغسلت يديّ من الجص، وخرجت من القصر حتى أتيت الى الكناس، فبينا أنا واقف والناس يتوقعون وصول السبايا إذ

أقبل أربعون جملاً يحمل النساء والأطفال، وإذا بعلي بن الحسين على بعير بغير وطاء، وهو يبكي ويقول:

يا أُمة السوء لا سقياً لرعيكم ... يا أُمة لم تراع جدّنا فينا

لو اننا ورسول الله تجمعنا ... يوم القيامة ما كنتم تقولونا

تسيرونا على الأقتاب عارية ... كأننا لم نشيّد فيكم دينا[1]

يقول المحدث القمي رحمه الله في نفس المهموم:

قد ثبت عن الرواة الثقاة ان عمر بن سعد لعنه الله حمل ودائع خير الأنبياء على الجمال بلاغطاء ولا وطاء، فساقوهنّ كما تساق الأسارى، فلمّا وردوا الكوفة أمر ابن زياد أن يستقبلوهنّ برأس الحسين عليه السلام فحملوا الرأس الشريف على الرمح، وفعلوا برؤوس الباقين ذلك، وسلكوا بها قدّام القوم حتى وردوا البلد، ثم طافوا بالرؤوس الشريفة في السكة والأسواق[2]. كما ورد في الفتوح لابن أعثم[3].

وكان هذا أوّل رأس حمل في الإسلام[4] أو ثاني رأس كما يروى، يقول المحدث القمي في نفس المهموم[5]:

يقول ابن طاووس، فلمّا قاربوا الكوفة اجتمع أهلها للنظر إليهنّ (السبايا)، فأشرفت امرأة من الكوفة، فقالت: من أيّ السبايا انتنّ، فقلن: نحن من سبايا

١- حياة الإمام الحسين عليه السلام ٣: ٣٣٣، للشيخ باقر القرشي نقلاً عن مخطوطة مقتل الحسين عليه السلام لعبدالله نور الله.

٢- نفس المهموم: ٤٠١ ـ ٤٠٢، تحقيق الشيخ رضا استادي.

٣- الفتوح لابن أعثم ٥: ٢٢١.

٤- كشف الغمة ٢: ٢٣٧.

٥- نفس المهموم: ٤٠٢، ويروي ذلك كما في الهامش ابن الأثير في الكامل ٤: ٨٣

آل محمد، فنزلت المرأة، فجمعت لهنّ ملاءة (ملاحف) وازاراً ومقانع، واعطتهنّ ليغطين رؤوسهن"[1].

خطاب السيّدة زينب لأهل الكوفة

قال بشير بن حذلم (خُزيم) ونظرت الى زينب ابنة علي يومئذ، فلم أر خفرة انطق منها، كأنّها تفرغ من لسان أميرالمؤمنين عليه السلام، وقد أومأت الى الناس أن اسكتوا فارتدّت الأنفاس وسكنت الأجراس ثمّ قالت:

«الحمْدُلله والصّلاةُ عَلى أبي (جَدّي) مُحمّد وَآله الطّيّبين الأخْيار.

أمــا بَعْــدُ، يــا أهْلَ الكُوفَة، يا أهْلَ الخَتْل والغَدْر! أتَبْكُون؟! فَلا رَقَأت الدّمْعةُ، وَلا هَدأتِ الرَّنَّةُ، إنّما مَثَلُكُم كَمَثَلِ الّتي نَقَضَتْ غَزْلَها مِنْ بَعْدِ قُوّة أنكاثاً، تَتخّذونَ أيْمانَكُمْ دَخلاً بَيْنَكُمْ.

ألا وَهَــلْ فيكُمْ إلاّ الصَّلفُ النَّطَفُ وَالصّدْرُ الشَّنَفُ وَمَلَقُ الإماء، وَغمْزُ الأعْداء؟ أو كَمَرْعىً عَلى دِمْنَة، أو كَفضَّة عَلى مَلْحُودَة، ألا ساءَ ما قَدّمَتْ لَكُمْ أنْفُسُكُم أنْ سَخِطَ اللهُ عَلَيْكُمْ وَفي العَذابِ أنْتُمْ خالِدُونَ.

أتــبكُونَ وَتَنْتحبُونَ؟! إيْ والله فَأبكُوا كَثيراً، وَاضْحَكُوا قَليلاً. فَلَقَدْ ذَهَبْتُمْ بِعارِهــا وَشَــنارِها، وَلَنْ تَرْحَضُوها بِغُسْل بَعْدها أبداً، وأنّى تَرْحضُون، قَتْلَ سَليلِ خاتمِ النُّبوّةِ، وَمَعْدنِ الرّسالَةِ، وَسَيِّد شَبابِ أهلِ الجنّة وَمَلاذ خيرَتكُمْ وَمَفْزَعِ نازِلَتكُمْ وَمَنار حُجّتكُمْ وَمدْرَةَ سُنّتكُمْ.

ألا ساءَ ما تَزرُونَ، وَبُعْداً لَكُمْ وَسُحْقاً. فَلَقَدْ خابَ السّعْيُ وَتَبّتِ الأيْدي وَخَسِرَتِ الصفْقَةُ وَبُؤْتُمْ بِغَضَبٍ مِنَ اللهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْكُمُ الذّلّةُ والمَسْكَنَةُ.

١- اللهوف لابن طاووس: ١٧٢.

وَيْلَكُمْ يا أهلَ الكُوفَة! أتدرُونَ أيَّ كَبد لرَسُول الله فَرَيْتُمْ؟ وأيَّ كَريمَة لَهُ أبْرَزْتُمْ، وأيَّ دَم لَهُ سَفَكْتُم؟ وأيَّ حُرْمَة لَهُ إنْتَهَكْتُمْ؟! لَقَدْ جِئْتُمْ بها صَلْعاءَ عَنْقاءَ سَوْداءَ فَقْماءَ (وفي بعضها) خَرْقاءَ شَوْهاءَ كَطِلاعِ الأرْضِ أوْ ملاءَ السَّماء.

أفَعَجِبْتُمْ أنْ مَطَرَت السَّماءُ دَماً، ولَعَذابُ الآخرة أخْزى، وأنْتُمْ لا تُنصرُونَ، فَلا يَسْتَخِفَنَّكُمُ المُهَلُ فإنّهُ لا يَحْفِزُهُ البِدارُ، ولا يَخافُ فَوْتَ الثّأرِ وإنَّ رَبَّكُمْ لَبِالمِرْصاد...».

قال الراوي: فوالله لقد رأيت الناس يؤمئذ حيارى يبكون وقد وضعوا أيديهم في أفواههم، ورأيت شيخاً واقفاً الى جنبي يبكي حتّى اخضلّت لحيته وهو يقول: «بأبي أنتم وأمي! كهولكم خير الكهول، وشبابكم خير الشباب، ونسائكم خير النّساء ونسلكم خير نسل لا يخزى ولا يُبزّى»[1].

تأمّلات في خطاب السيدة زينب عليها السلام

إنّ خطاب السيدة زينب عليها السلام كان يومئذ يتدفق كالشلال الهادر الذي ينحدر من قمة الجبل، يجرف معه ما يواجهه من الصخور، والأحجار، التي يقتلعها عن مستقرّها لا يصده شيء، ويرغمك أن تفتح له سمعك وقلبك... كذلك كان تأثير هذا الكلام يومئذ على ذلك الجمهور الغفير الذي جاء متفرجاً على مأساة أهل البيت عليهم السلام، وليس متعاطفاً، كما يتفرج الناس على أي مشهد يثير فضولهم... فارغمهم الخطاب ان يعدلوا عن هذا الموقف الى التعاطف والتفاعل، وأبكاهم فاجهشوا بالبكاء، وارتفع نحيبهم وصراخهم،

١- اللهوف لابن طاووس: ١٧٦.

وهزّهم من الأعماق. لقد احبطت السيدة زينب عليها السلام بكلماتها كل الجهد الذي بذله الطاغية في إدارة وإعداد هذا المشهد الاعلامي.

إنّها كانت حمماً، وليست كلمات، قذفتها ابنة علي والزهراء عليهما السلام على كل ما شيّده طاغية بني أُمية في الشام وعاملهم في الكوفة فهدمت كلما صنعوا من مجد كاذب وغرور وكبرياء وسلطان.

ولست أدري ماذا أودع الله تعالى في خطابها واشاراتها، من التأثير والنفوذ والقوة يومئذ، عندما أشارت الى ذلك الجمهور المتفرّج اللاغط: إن اسكتوا، فسكنت الأنفاس والأجراس، كما تقول الرواية.

وليس لنا أن نتوقف بالتأمّل في كلمات ابنة الزهراء عليها السلام ووارثة علم علي عليه السلام وشجاعته وبلاغته، ومن الخير أن نمضي مع هذا السيل الجارف المتدفق من الخطاب الزينبي الهادر، ولا نشوّش على القارئ هذه الفرصة، حتى يرتوي من الخطاب كما يحب ويشتهي.

ولكن أجد من النافع أن اشرح بعض مقاطع هذا الخطاب ليعرف القارئ خلفياته في القرآن والحديث والتاريخ. وإليك طائفة من هذه النقاط، معتذراً الى سيدة نساء كربلاء وابنة سيدة نساء العالمين عليها السلام.

١. الشجب والتأنيب والتقريع

كان أهل البيت عليهم السلام عند دخولهم الى الكوفة بعد مأساة كربلاء، بتلك الحالة المزرية، يتحدثون مع أهل الكوفة بمرارة وألم، لا نعرف في تاريخ أهل البيت عليهم السلام مثله قط، وكانوا يؤنّبون أهل الكوفة، ويشجبون تخاذلهم عن نصرة الحسين عليه السلام وغدرهم، وقعودهم عنه، بل خروجهم لقتال الحسين عليه السلام ومشاركتهم في محاربته.. أشدّ ما يكون الشجب والتقريع بعدما دعوه

وكاتبوه، ووعدوه أن ينصروه ويقفوا معه، وتواترت إليه عليه السلام كتبهم، فتقول بحرقة وبألم ما بعده ألم:

«يا أهل الكوفة يا أهل الختل والخذل (الغدر)».

وعندما رأتهم يتصارخون بالبكاء قالت لهم:

«أتبكون فلا رقأت الدمعة».

وتقرّعهم بما جنت أيديهم من الجريمة التي تخر الجبال لها هداً، فتقول:

«أتدرون، ويلكم أي كبد لرسول الله فريتم، وأي دم له سفكتم، وأي حرمة له انتهكتم، ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ۞ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾.

ويتكرر هذا التأنيب والتقريع والشجب بكل ما تحمل الكلمة من حرقة وألم وأذى في كلمات الإمام علي بن الحسين عليه السلام وفاطمة الصغرى والسيدة أم كلثوم عليها السلام في أوّل لقاء التقوا أهل الكوفة وجهاً لوجه.

وعندما ارتفع نحيبهم واجهشوا بالبكاء ندماً وحسرة، قالت لهم:

«أتبكون وتنتحبون، أي والله، فأبكوا كثيراً واضحكوا قليلاً، فلقد ذهبتم بعارها وشنارها، ولن ترحضوها بغسل أبداً».

ولسوف يطول بكاؤكم ويقل فرحكم وسروركم ولن تغلسوا عار تلك الجريمة، وأنى تغسل الدموع عار تلك الجريمة التي شاركوا ودخلوا فيها وتخاذلوا فيها عن الحسين عليه السلام ونصرته، واصطفّوا مع اعدائه، رَهَباً أو رَغباً.

سبحان الله! ما هذه بكلمات، ولكنها أفلاذ من كبد الحوراء، بنت فاطمة عليها السلام، تتقطّع حسرة وألماً في هذه المأساة التي سجلها الله تعالى في ذاكرة التاريخ ليعرف الأجيال التي تأتي فيما بعد، بأيّ ثمن حفظت هذه الثلة من أهل البيت عليهم السلام الإسلام في تلك البرهة الصعبة من التاريخ.

٢. عاقبة الخذلان

ولن يطول الأمر بالذين تركوا ابن بنت رسول الله ﷺ وحده، في مقابلة عدوان بني أُمية وبطشهم، وإنتهاكهم لحرمات الله، فلم يغضبوا لله، ولم يضربوا معه بسيف، وخذلوه وخانوه، وصفوا مع الطاغية، وتعاونوا معه على قتله، وهو يدعوهم الى الله، والطاغية يدعوهم الى النار...

فلن يطول بهم الأمر حتى يذلهم الله على يد طغاة بني أُمية الذين آثروا نصرهم والوقوف معهم على الانتصار للحسين عليه السلام، وهذه سنن الله عزّ وجل تلقيها الحوراء زينب عليها السلام في ذلك المشهد العجيب، بعد عودتها من مأساة كربلاء... فلن يطول بهم الزمان حتى يحكمهم الحجّاج بالسيف والقهر والذل والبطش، ويذلهم ببطشه، ويسفك دماءهم.

وكأنما ترى الحوراء في ذلك اليوم بطش الحجاج بهم وإذلاله لهم، بعد أن تخاذلوا عن نصرة أخيها بكربلاء وهو يدعوهم الى الله ورسوله «فتعساً ونكساً، وبعداً لكم، وسحقاً، وبؤتم بغضب من الله ورسوله، وضربت عليكم الذلة والمسكنة».

إنّ السيوف التي غُمدت عن نصرة الحسين عليه السلام سُلّت بعد ذلك لقتال الحسين جنباً الى جنب مع الطاغية يوم عاشوراء، ثم لم تطل بهم العافية التي طلبوها في الدنيا بجانب بني أُمية، حتى استبدّ بهم طغاة بني أُمية وحكمهم الحجّاج فأكثر فيهم القتل وانتهك حرماتهم، وأراهم الرعب والخوف والذل والبطش.

وتتنبأ الحوراء زينب عليها السلام بهذه العاقبة لأولئك الناس يومئذ، حينما تقول:

«وبؤتم بغضب من الله ورسوله، وضربت عليكم الذلة والمسكنة».

٣. التعميم في الخطاب

يلفت النظر في هذا الخطاب التقريعي ان السيّدة زينب عليها السلام تعمّم التقريع والتأنيب بقتلهم للحسين عليه السلام على الحاضرين الذين استقبلوهم بظهر الكوفة، وعلى المشاركين في قتال أخيها على نحو سواء فتقول:

«أتدرون أي كبد لرسول الله فريتم، وأي كريمة له أبرزتم، وأي دم له سفكتم، وأي حرمة له انتهكتم. فلقد ذهبتم بعارها وشنارها، ولن ترحضوها بغسل أبداً».

ولم يكن في ذلك الجمهور نفر كثير ممن شارك في قتل الحسين عليه السلام، فإنّ الجلاوزة جاءوا بأهل البيت عليهم السلام والرؤوس الشريفة قبل عودة الجيش الى الكوفة، على أننا نستبعد أن يكون هؤلاء الذين استقبلوا أهل البيت عليهم السلام بالبكاء والنحيب ممن تلطّخت أيديهم بدماء شهداء الطف.

فمن ذا تخاطب الحوراء عليها السلام بهذه الكلمات الأليمة الشديدة.

إنّ هذا الخطاب، كما هو ظاهر لا يخص الذين تولّوا قتل الحسين وأصحابه عليهم السلام، وإنّما يشمل جمهوراً كبيراً من أهل الكوفة، الذين تخاذلوا عن نصرة الحسين عليه السلام، ورضوا بمقتله ولم يغضبوا لقتل الحسين عليه السلام، هؤلاء يشملهم هذا الخطاب، وملاك التعميم هو الرضا والسخط.

فإنّ الرضا والسخط يجمعان الناس الذين يجمعهم الرضا والسخط، وان تباعدت أزمانهم وبلادهم ويقرّبان الناس الذين يفرّقهم الرضا والسخط، وإن تقارب مكانهم وزمانهم.

يقول أميرالمؤمنين عليه السلام:

«أيّها الناس إنّما يجمع الناس الرضا والسخط، وإنّما عقر ناقة ثمود

رجل واحد، فعمّهم الله بالعذاب لما عمّوه بالرضا، قال سبحانه: ﴿فَعَقَرُوهَا فَأَصْبَحُوا نَادِمِينَ﴾ فما كان إلا أن خارت أرضهم بالخسفة خوار السكة المحماة من الأرض الخوارة»[1].

وهؤلاء الناس رضوا بقتل الحسين عليه السلام، حتى الذين لم يشاركوا منهم في قتال الحسين عليه السلام وأصحابه يوم عاشوراء، وآية هذا الرضا انّهم لم يسخطوا ولم يغضبوا، ولم يثوروا بوجه الطاغية، ولم يتلاوموا فيما بينهم على تخاذلهم عن دعوة ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وآله، ولا نستثني منهم إلاّ (التوّابين) الذين عادوا الى رشدهم فيما بعد، وتلاوموا وتعاهدوا على الثأر لدم الحسين عليه السلام، إذ فاتهم الانتصار للحسين عليه السلام.

روى محمد بن الأرقط عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام، قال: «تنزل الكوفة؟ قلت: نعم. قال: فترون قتلة الحسين بين أظهركم، قلت: جعلت فداك ما رأيت أحد منهم.قال: فإذن أنت لا ترى القاتل إلاّ من قتل أو وُلي القتل، ألم تسمع الى قول الله عزّوجل: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

فأي رسول قتل الذي كان محمد صلى الله عليه وآله بين أظهرهم ولم يكن بينه وبين عيسى عليه السلام رسول. وإنّما رضوا قتل أُولئك فسمّوا قاتلين»[2].

ويشير الإمام عليه السلام في هذه الرواية الى الآيات (١٨١-١٨٣) من سورة آل عمران: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء سَنَكْتُبُ مَا قَالُواْ وَقَتْلَهُمُ الأَنبِيَاء بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُواْ عَذَابَ الْحَرِيقِ * ذَلِكَ بِمَا

١- نهج البلاغة ٢: ٢٠٧.

٢- تفسير البرهان ١: ٣٢٨ ط. قم إسماعيليان.

قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللّهَ لَيْسَ بِظَلاَّمٍ لِّلْعَبِيدِ * الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللّهَ عَهِدَ إِلَيْنَا أَلاَّ نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىَ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ النَّارُ قُلْ قَدْ جَاءكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِي بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالَّذِي قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾.

فإنّ هؤلاء الذين ينسب الله تعالى إليهم القول بأن الله فقير ونحن أغنياء وقتلوا الأنبياء بغير حق... قد قالوا هذه الكلمة، كما يثبتها المفسرون في شأن نزول هذه الآية، ولكن لم يقتلوا نبيّاً قط... وقد جاءت هذه النسبة إليهم بوضوح في موضعين من هذه الآيات، فأي نبي قتل هؤلاء، وبينهم وبين أنبياء بني إسرائيل عدّة قرون من الزمان... وإنّما الذي قتل الأنبياء من بني إسرائيل وأنكر نبوتهم و جحدهم سلفهم من اليهود.

والجواب: إنّ اليهود في عصر رسول الله ﷺ كانوا راضين بجرائم آبائهم، ولم يتبرّأوا منهم، ولم ينكروا عليهم، ولم يعلنوا رفضهم وبراءتهم عنهم، فنسب الله تعالى إليهم جرائم آباءهم في قتل الأنبياء.

وتشير السيدة زينب بطلة مأساة كربلاء الى هذه الحقيقة.

فإنّ هؤلاء شاهدوا أبشع جريمة في عمل بني أُمية، وأنصع دعوة في تاريخ الإسلام في دعوة الحسين عليه السلام، فلم يقفوا مع الحسين عليه السلام وينكروا على طغاة بني أُمية جريمتهم بحق الحسين عليه السلام وأصحابه، ولم يتبرأوا من فعلتهم، ولم يعلنوا سخطهم وانكارهم وبراءتهم منهم، وآثروا العافية في كل ذلك على مرضاة الله، فسكتوا ورضخوا وخذلوا إمام المسلمين عليه السلام... ولا نستثني منهم إلاّ الذين عادوا الى رشدهم وتابوا واعلنوا غضبهم وخروجهم على بني أُمية بعد ذلك.

فتخاطبهم الحوراء بهذا الخطاب المؤلم الشامل، وبهذا التقريع الشديد العام:

«فلقد ذهبتم بعارها وشنارها، ولن ترحضوها بغسل بعدها أبداً وأنّى ترحضون قتل سليل خاتم النبوة ومعدن الرسالة، وسيد شباب أهل الجنة، ألا ساء ما تزرون.

ويلكم يا أهل الكوفة أتدرون أي كبد لرسول الله فريتم، وأي دم له سفكتم، وأي حرمة له انتهكتم؟».

ثم تعمّهم بالدعاء بعد أن عمّتهم الجريمة:

«فتعساً، ونكساً، وبعداً لكم، وسُحقاً، فلقد خاب السعي، وتبت الأيدي، وخسرت الصفقة، وبؤتم بغضب من الله ورسوله، وضربت عليكم الذلة والمسكنة».

٤. الإمهال في العذاب

وتنذرهم ابنة علي عليه السلام في هذا الخطاب بعذاب الدنيا وأليم عذاب الآخرة:

«أفعجبتم إن مطرت السماء دماً، ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنصَرُونَ﴾».

وأي عذاب هذا العذاب؟ أن تمطر السماء دماً، ثم تنذرهم بأنّ عذاب الآخرة أشد وآلم.

ثم تنذرهم مرة أُخرى أن لا يغرّنهم، ولا يستخفّنهم تأجيل العذاب عنهم الى حين، فإنّ الله تعالى يمهل ولا يهمل، تقول عليها السلام:

«فلا يستخفنكم المهل، فإنّه لا يحفزه البدار، ولا يخاف فوت الثار، وان ربّكم لبالمرصاد».

ومن أشد ما يعاقب الله تعالى عباده أن يمهلهم ويستدرجهم الى العصيان والإثم، ويملي لهم، ثم ينقضّ عليهم العذاب، فيأخذهم فجأة، ضحىً وهم يلعبون.

يقول تعالى: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾[1].

﴿فَلَمَّا نَسُوا مَاذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُبْلِسُونَ﴾[2].

فتنذرهم السيدة أن لا يستخفنهم الإمهال في العذاب، فإنّ الله تعالى لا يحفزه البدار، ولا يستعجل بعذاب عباده، وفي ذلك نقمة وعقاب لمن يستحق النقمة والعقاب فلا يتوب ولا يؤوب الى رشده فيزداد إثما، ويستدرجه الإمهال الى الامعان في العصيان والإثم.

عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام: «إذا أراد الله عزّ وجلّ بعبد خيراً، فأذنب ذنباً تبعه بنقمة يُذكِّره الاستغفار، وإذا أراد الله بعبد شرّاً فأذنب تبعه بنعمة لينسيه الاستغفار ويتمادى به، وهو قول الله عزّ وجل: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِنْ حَيْثُ لاَيَعْلَمُونَ﴾[3].

وما من عقوبة للأُمم التي استحقت العقوبة بالعصيان والإثم أشد من الاملاء والإمهال.

يقول أمير المؤمنين عليه السلام، والكلام في نهج البلاغة:

١- آل عمران: ١٧٨.

٢- الأنعام: ٤٤.

٣- بحار الأنوار٧٣: ٣٨٧.

«أيها الناس ليراكم الله من النعمة وجلين، كما يراكم من النقمة فرقين، إنّه مَن وسّع عليه في ذات يده، فلم ير ذلك استدراجاً فقد أمن مخوفاً، ومن ضيّق عليه في ذات يده فلم ير ذلك اختباراً فقد ضيّع مأمولاً»[1].

ويقول عليه السلام: «كم من مستدرج بالاحسان إليه، ومغرور بالستر عليه، ومفتون بحسن القول فيه، وما ابتلى الله أحداً بمثل الإملاء له»[2].

ولم يطل الإملاء والإمهال الإلهي بهؤلاء القوم الذين انذرتهم ابنة الزهراء عليها السلام بعذاب الله في ذلك اليوم الرهيب، طويلاً فما مرّ عليهم سنون خمسة حتى سلّط الله تعالى عليهم المختار رحمه الله فتتبعهم ولاحقهم والتقطهم وعاقبهم تحت شعار:«الثأر من قتلة الحسين» ولم يسلم منهم إلاّ القليل واذاقهم الذل والخوف والرعب وحر الحديد، ولعذاب الآخرة آلم وأشد وأقسى.

ثم لم يمضِ بعد ذلك سنون حتى سلط الله عليهم الحجاج بن يوسف لعنه الله، فأذاقهم الذل والهوان والقتل وسلب منهم الأمان والعافية التي كانوا يطلبونها لدنياهم فخذلوا الحسين عليه السلام، فعاقبهم الله بالحجّاج.

ثم توالت عليهم المحن والنكبات محنة بعد محنة ونكبة بعد نكبة، وتتابع عليهم طغاة بني اُمية طاغية بعد طاغية.

٥. الإحباط

وتذكّرهم زينب عليها السلام بقوله تعالى:

﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِن بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثاً تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ

١- نهج البلاغة، حكمة رقم ٣٥٨.

٢- نهج البلاغة، حكمة رقم ١١٦.

دَخَلاً بَيْنَكُم﴾[١][٢].

فقد نقض القوم كل ما شيّدوه وعملوه من قبل، وقد كان فيهم من وقف مع علي في الجمل وصفين والنهروان، ولكنهم نقضوا كل ذلك في عاشوراء عام (٦١ هـ) بخذلانهم للحسين عليه السلام ووقوفهم الى جنب الطاغية وقتالهم للحسين عليه السلام، ورضاهم بقتالهم.

إن المحافظة على الأعمال الصالحة قد تكون أشق من أصل العمل، وليس بقليل الذين أحسنوا وأصلحوا، وعملوا الأعمال الصالحة، ثمّ أفسدوا أعمالهم وأبطلوها.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّه وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمَالَهُم * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلاَ تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ﴾[٣].

ويقول تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾[٤].

وكما أن السيئات تحبط الحسنات، كذلك الحسنات تكفّر السيئات وتغطيها.

والقرآن يشير الى كل من هذين: الاحباط والتكفير، يقول تعالى:

١- النحل: ٩٢.

٢- النقض يقابل الإبرام، وهو بمعنى إفساد ما أحكم من حبل أو غزل. والنكث بمعنى النقض، وكل شيء نقض بعد الفتل فهو أنكاث حبلاً كان أو غزلاً، والآية الكريمة تمنعهم أن يكونوا كالمرأة التي تغزل ثم تعود فتنقض ما غزلت وتهدم ما بنت.

و(الدخل) كل ما دخل الشيء وليس منه، ويكنى به عن الخيانة والغدر، ومعنى الآية الكريمة لا تتخذوا إيمانكم وسيلة للغدر والخيانة تطيّبون بها النفوس ثم تخونون وتخدعون بنقضها. راجع تفسير الميزان١٢: ٣٥٨.

٣- محمد: ٣٢ ـ ٣٣.

٤- الفرقان: ٢٣.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾(1).

ويقول تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفاً مِّنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ...﴾(2).

فالأعمال، كالأشياء المادية، فيها بناء وهدم، وفيها إعادة بناء ما هدمه الإنسان، وهدم ما بناه.

إنّ السلوك الاجتماعي والسياسي والمالي في وسط المجتمع من أشق الأمور، فقد يهدم الإنسان في موقف سياسي أو اجتماعي ما بناه وعمله في حياته.

وتنصحهم السيدة زينب ألا يكونوا ممّن احبطوا أعمالهم «لا تكونوا كَالّتي نقضت غزلها من بعد قوّة انكاثاً».

وألاّ يتخذوا أيمانهم ومواثيقهم التي أعطوها للحسين عليه السلام من قبل عندما سألوه القدوم إليهم، دخلاً وأداة للغدر والخيانة.

وطالما يجدون فرصة للعودة والتوبة الى الله فعليهم أن يعودوا ويتوبوا الى الله عن الخذلان والتقصير، الذي حصل منهم تجاه دعوة سيد شباب أهل الجنة عليه السلام.

ولئن كان في كلمات السيدة زينب عليها السلام تقريع موجع يعبّر عن آلام بطلة مأساة كربلاء... فإنّها عليها السلام تفتح لهم طريق العودة الى الله مرة أُخرى، وان

1- الأنفال: 29.

2- هود: 114.

يؤوبوا الى أنفسهم، ويستغفروا الله، ولئن فاتهم أن ينصروا الحسين عليه السلام فلا يفوتهم أن يثأروا له وللكوكبة الصالحة التي خرجت معه، وأن ينتقموا من الظالمين الذين أكثروا الفساد في الأرض.

٦. علاقة الكوارث الكونية بسيئات الناس

نجد في كلام السيدة زينب عليها السلام اشارتان جديرتان بالتوقف والتأمّل في علاقة الكوارث الكونية والعذاب الإلهي النازل على الأرض بسيّئات الناس وذنوبهم.

فهي تخاطبهم منذرة إيّاهم من عذاب الله: «ويلكم، أتدرون أي كبد لرسول الله فريتم، وأي دم لـه سفكتم، ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا * تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾[1]».

ثم تقول بعد ذلك، وفي نفس السياق: «ولقد أتيتم بها خرقاء شوهاء كطلاع الأرض، وملأ السماء، أفعجبتم ان مطرت السماء دماً، ﴿وَلَعَذَابُ الآخِرَةِ أَخْزَى وَهُمْ لا يُنصَرُونَ﴾».

الكوارث الكونية عند مصرع الحسين عليه السلام

وقد استفاضت الروايات إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان قد أخبر أُم المؤمنين أُم سلمة رحمها الله بمصرع الحسين عليه السلام وأودع عندها قارورة، وعرّفها أنها إذا

١- مريم: ٨٩ ـ ٩٠.

الآيات الكريمة من سورة مريم بصدد تهويل الشرك بالله، وأن بالشرك بالله تكاد السماوات أن تتفطر وتكاد الأرض أن تنشق و تكاد الجبال أن تسقط (تخر) هدّاً (أي هدماً) يعني تكاد أن تنهدم الجبال وتتساقط. و (الإد) الذنب الفظيع، وواضح أن الآية الكريمة بصدد التهويل، وتحسيس المشركين بهذه المظاهر الكونية المحسوسة على عظم الجريمة. ولكنها واضحة في علاقة العذابات الكونية كالزلازل والكوارث الكونية بسيّئات أعمال الناس وجرائمهم.

فاضت دماً فهو علامة مصرع ولده الحسين عليه السلام... فلمّا خرج الحسين عليه السلام من المدينة الى مكة ومنها الى العراق كانت أُم سلمة تنظر الى القارورة كل يوم، وتقول: إنّ يوماً تتحولين الى دم ليوم عظيم.

فرأت رسول الله صلى الله عليه وآله في اليوم العاشر من المحرم في المنام أشعث، مغبراً، وعلى رأسه التراب، فقالت له: مالي أراك يا رسول الله مغبراً؟!

فقال لها: قتل ولدي الحسين، ومازلت أحفر القبور له ولأصحابه، فانتبهت من منامها مذعورة، فبادرت الى القارورة التي جعلها رسول الله صلى الله عليه وآله علامة لها فإذا بها تفور دماً.

فنادت أُم سلمة: قتل الحسين، ملأ الله بيوتهم وقبورهم ناراً، فاقبلوا النساء عليها، وقلنّ لها: من أين علمت ذلك فأخبرتهنّ برؤياها، وتصارخت النسوة، حتى ضجت المدينة، وهذه الرواية معروفة وقد ذكرها جملة من المؤرخين»[١].

وقال ابن حجر الهيثمي في الصواعق المحرقة: «ومما ظهر يوم قتله عليه السلام من الآيات أيضاً أن السماء اسودّت، إسوداداً عظيماً، حتى رؤيت النجوم نهاراً، ولم يرفع حجر إلاّ وجد تحته دم عبيط»[٢].

«وان السماء احمرت لقتله، وانكسفت حتى بدت الكواكب نصف النهار، وظن الناس ان القيامة قد قامت، ولم يرفع حجر في الشام إلاّ رؤي

١- منهم ابن عساكر في تاريخ دمشق١٣: ٨٥ و٤: ٣٤٠، واليافعي في مرآة الجنان١: ١٣٤، وأحمد في (المسند)١: ٢٤٢، وابن الأثير في الكامل٤: ٣٨، والخوارزمي في المقتل٢: ٩٥، والمحب الطبري في ذخائر العقبى: ١٤٨، والسيوطي في تاريخ الخلفاء: ١٣٩، وابن حجر في تهذيب التهذيب٢: ٣٥٥. وابن الشيخ الطوسي في الأمالي٣: ٥٦، والطريحي في (المنتخب): ٢٣٥، والسيوطي في (الخصائص)٢: ١٢٦، ومصادر أُخرى أخذناها من مقتل الحسين عليه السلام للعلامة الفقيد السيد عبدالرزاق المقرّم رحمه الله: ٣٤٣.

٢- الصواعق المحرقة: ١٩٢.

تحته دم عبيط»[1].

يقول السيد عبدالرزاق المقرّم في المقتل[2]:

«أظلمت الدنيا ثلاثة أيام[3] واسودت سواداً عظيماً[4] حتى ظن الناس ان القيامة قامت[5] وبدت الكواكب نصف النهار[6] ولم ير نور الشمس»[7].

والروايات التاريخية في ذلك متضافرة، تناقلها أئمة التاريخ والسيرة، وحفّاظ الحديث النبوي، ولا نريد أن نسهب في هذا الأمر أكثر من هذا الحد.

الكوارث الكونية وعلاقتها بسيئات الناس في القرآن

والقرآن صريح وواضح بعلاقة الكوارث الكونية بسيئات أعمال الناس.

وإليك هذه الآيات من كتاب الله:

يقول تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِن مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُوا عَن كَثِيرٍ﴾[8].

ويقول تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ

١- المصدر السابق.

٢- مقتل الحسين عليه السلام للمقرّم: ٣٤٥، ونقلنا المصادر التالية عن هذا المصدر.

٣- تاريخ ابن عساكر ٤: ٣٣٩، والخصائص الكبرى ٢: ١٢٦، والخطط المقريزية ٢: ٢٨٩، وتذكرة الخواص: ١٥٥، والمقتل للخوارزمي ٢: ٩٠.

٤- الإتحاف بحب الأشراف: ٢٤، وتهذيب التهذيب ٢: ٣٥٤، وتاريخ ابن عساكر ٤: ٣٣٩.

٥- الصواعق المحرقة: ١١٦ والإتحاف: ٢٤.

٦- تهذيب التهذيب ٢: ٣٥٤، والصواعق المحرقة: ١١٦، وتاريخ ابن عساكر ٤: ٣٣٩، وتاريخ الخلفاء: ١٣٨.

٧- مجمع الزوائد ٩: ١٩٧، تاريخ الخلفاء: ١٣٨، الكواكب الدرية ١: ٥٦.

٨- الشورى: ٣٠.

لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾[١].

ويقول تعالى: ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأَرْضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَمَا كَانَ لَهُم مِنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ﴾[٢].

ويقول تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾[٣].

ويقول تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا * إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا * فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا * فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا * وَلاَ يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾[٤].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ * إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ * الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلاَدِ * وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ * وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ * الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلاَدِ * فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ * فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ * إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ﴾[٥].

ويقول تعالى في قوم نوح: ﴿مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا فَأُدْخِلُوا نَاراً فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِن دُونِ اللَّهِ أَنصَاراً﴾[٦].

١- الروم: ٤١.

٢- المؤمن: ٢١.

٣- الإسراء: ١٦.

٤- الشمس: ١١ ـ ١٤.

٥- الفجر: ٦ ـ ١٤.

٦- نوح: ٢٥.

النعمة وعلاقتها بالتقوى

والعكس أيضاً صحيح، فكما تنزل الكوارث والنقم بسيئات أعمال الإنسان، كذلك تنزل النعم والخيرات والبركات على الأرض بحسنات أفعال الناس.

وكما تكون الآثام والمعاصي سبباً في نزول الكوارث من زلزال وصاعقة وفقر وبأس وابتلاء وأمراض وحروب كذلك تكون التقوى سبباً لنزول الرحمة، من لدن الله الى الأرض، ويفتح الله تعالى على الناس بالتقوى بركات الأرض والسماء.

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّماءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(1).

والسنّة الإلهية العامة في هذا وذاك انّ الله تعالى لا يغير ما بالناس من نعمة ورحمة أو ابتلاء وشدّة إلاّ بسيئات أعمالهم وحسناتها، فإذا حسنت أعمالهم أحسن الله إليهم، وإذا ساءت أعمالهم عاقبهم الله تعالى فساءت أحوالهم.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءاً فَلاَ مَرَدَّ لَهُ﴾(2).

ويقول تعالى: ﴿ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَابِأَنْفُسِهِمْ﴾(3).

وهاتان الآيتان واضحتان في الدلالة على العلاقة بين أحوال الناس

١- الأعراف: ٩٦.

٢- الرعد: ١١.

٣- الأنفال: ٥٣.

وأوضاعهم السياسية والاقتصادية والاجتماعية وبين أعمالهم، فإذا ساءت أعمالهم ساءت أحوالهم وأوضاعهم، وإذا حسنت أعمالهم طابت وحسنت أوضاعهم وأحوالهم.

العلاقة بين العمل والجزاء

ولا نريد أن نترك هذا الحديث قبل أن نتطرق الى القانون العام الشامل لكل ما ذكرناه، وهو علاقة العمل بالجزاء في المعايير الإلهية.

إنّ الجزاء الوارد في النصوص الإسلامية من كتاب وسنّة من قبيل نتائج الأعمال وآثارها التكوينية، وليست من قبيل العلاقة بين العمل والجزاء في الدنيا. فإنّ العلاقة بين العمل والجزاء في الدنيا علاقة قانونية تدخل في دائرة التقنين والتشريع، ويختلف الجزاء من اُمة الى اُخرى، حسب اختلاف القوانين والتشريعات، فقد تكون القوانين متسامحة في تقدير العقوبة، فتكون العقوبة هيّنة، وقد تكون القوانين متشدّدة فتكون العقوبة شديدة وقاسية.

ولكن الجزاء في الآخرة، عقوبة ومثوبة، من قبيل النتائج والآثار التكوينية للأعمال، ولا تدخل في حقل القرارات التشريعية... ومثل ذلك في الدنيا أن من لا يتحفظ على صحته ولا يحتمي يمرض. والمرض هنا نتيجة عدم الاحتماء، والتاجر الذي يهمل الحركة في السوق يصيبه الفقر والخسران. والفقر والخسارة نتيجة لانعدام السعي والحركة في السوق. والطالب الذي يكسل عن الدراسة ولا يجتهد في الدرس يفشل في الامتحان، والذي يسعى ويجتهد ينجح ويتقدم.

كذلك العلاقة بين العمل والجزاء في الآخرة من هذا القبيل، وكذلك في الدنيا، في غير العقوبات التشريعية التي تدخل في دائرة التقنين والتشريع.

٧. ما يقدمه الإنسان بين يديه الى الله

تقول الحوراء زينب عليها السلام في خطابها لأهل الكوفة: «ألا بئس ما قدمت لكم أنفسكم أن سخط الله عليكم وفي العذاب أنتم خالدون» وهذه الفقرة من كلام السيدة مقتبسة من قوله تعالى: ﴿تَرَى كَثِيراً مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾[1].

وهذه النقطة من كلام السيدة عليها السلام ذات علاقة بالنقطة السابقة، في علاقة العمل بالجزاء.

إنّ جزاء عمل الإنسان في الآخرة هو نتيجة عمله في الدنيا، وهذه النتيجة هي باطن عمل الإنسان تترائى له في الدنيا بغير هذه الصورة، وتتجلى له في الآخرة بصورته الحقيقية.

حيث يكشف عن بصر الإنسان، فيرى واقع عمله وباطنه الذي كان يخفى عليه في الدنيا.

يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[2].

١- المائدة: ٨٠

٢- سورة ق: ٢٢.

وكأنّ الإنسان كان في غفلة من حقيقة السيئة وواقعها وجوهرها فارتكبها، فلمّا كُشفَ عن عينه الغطاء بالموت وجد ما غفل عنه.

إنّ مال اليتيم الذي يأكله الناس حراماً، ظاهره ذهب وفضة ومتاع وضياع، وباطنه نار يغفل عنها الإنسان، فإذا حل به الموت وكشف عن عينيه الغطاء، عرف ما غفل عنه في الدنيا.

يقول تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْماً إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَاراً وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيراً﴾[1].

إنّ الناس لا يرون من هذه النقود والضياع في الدنيا إلاّ ظاهرها، فإذا ماتوا عرفوا ما غفلوا عنه وعرفوا أنّ الذي أكلوه من أموال اليتامى كان ناراً في بطونهم.

وان الثمن البخس الذي يبيع به علماء أهل الكتاب ما عرفوا من التوراة والانجيل فاخفوه عن الناس وتكتموا به... إنّ لهذا الثمن البخس الذي تلقوه ازاء هذا الكتمان نار في بطونهم غفلوا عنه في الدنيا، فإذا ماتوا عرفوا به: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[2].

ويقول تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلاَ يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ * يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا

١- النساء: ١٠.

٢- البقرة: ١٧٤.

جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هذَا مَا كَنَزْتُمْ لأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَاكُنْتُمْ تَكْنِزُونَ﴾[1].

إنّ تعبيرات القرآن في هذه النقطة واضحة وصريحة مثل: ﴿هذا ما كنزتم لأنفسكم﴾ ﴿إنّما يأكلون في بطونهم ناراً﴾ ﴿ما يأكلون في بطونهم إلاّ النار﴾ وأمثال ذلك، وهي تأبى الحمل على المجاز.

وهذا هو باطن عمل الإنسان وجوهره الذي كان يخفى عليه في الدنيا.

وما يصدر عن الإنسان من عمل من خير وشر، يبقى ولا ينعدم، فإذا مات الإنسان أحضره الله تعالى عنده، فوجد ما عمله من خير أو شر حاضراً.

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ...﴾ ها هنا يجد الإنسان عمله حاضراً أمامه بعينه، فإذا كان عمله سوءً تمنى أن يكون بينه وبين عمله أمداً بعيداً، وان يتخلص من عمله، ولكن هيهات ﴿...تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً وَيُحَذِّرُكُمُ اللّهُ نَفْسَهُ وَاللّهُ رَؤُوفٌ بِالْعِبَادِ﴾[2].

وجزاء الإنسان في الآخرة بنفس عمله، وعمله جزاؤه.

يقول تعالى: ﴿لاَ تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[3].

ويقول تعالى: ﴿ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ﴾[4].

إذن جزاء الإنسان في الآخرة هو نفس ما كسبه في الدنيا.

١- التوبة: ٣٤ ـ ٣٥.

٢- آل عمران: ٣٠.

٣- التحريم: ٧.

٤- البقرة: ٣٨١.

وفي سورة الإسراء نلتقي آية عجيبة في كتاب الله: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً * اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾[1].

و(الطائر) هو (العمل). ويوم القيامة يجعل الله أعمال الناس في أعناقهم، وهو كتابهم الذي يعكس أعمالهم. إنّ أعمالهم هو كتابهم الذي يلقون به الله تعالى، والإنسان هو الذي يقرأ كتابه يومئذ، لاغيره ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ وهو الذي يحاسب نفسه ويحكم على نفسه: ﴿كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾.

إذن جزاء الإنسان هو عمل الإنسان، باطن عمل الإنسان، وهذا الباطن كان قائماً في الدنيا غير أن الإنسان كان غافلاً عنه.

فإذا مات الإنسان انكشف باطن عمله، وأُحضر عمله إليه، ويرى الإنسان عندئذ عمله الذي قدمه لنفسه، يقول تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ * فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ * وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ﴾[2].

إنّ الإنسان يومئذ يرى عمله من خير أو شر. فإذا عمل خيراً رآه أمامه، ولو كان مثقال ذرة من الخير.

ومن عمل شرّاً يراه أمامه، ولو كان مثقال ذرّة من الشّر، فإنّ الميزان والحساب دقيق، غير أن الله رؤوف بعباده رحيم.

فما يعمله الإنسان من عمل في الدنيا من خير أو شر، إنّما يقدمه الإنسان لنفسه في الآخرة فإذا مات وجده أمامه.

١- الإسراء: ١٣ ـ ١٤.

٢- الزلزلة: ٦ ـ ٨.

يقول تعالى: ﴿وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾[١].

وهنا (الإمام المبين) لا يغفل عن شيء قدمه الإنسان أبداً فهو يحصي كل صغيرة وكبيرة مما قدمه الإنسان لنفسه احصاءً دقيقاً.

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ﴾[٢].

وتأمّلوا في هذه الآية من كتاب الله:

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾[٣].

حيث يأتي الأمر بأن ينظر الإنسان فيما يقدمه لآخرته، بعد الأمر بالتقوى وقبله، وهو يستوقف الإنسان طويلاً، فإذا كان ما يعمله الإنسان من عمل هو ما يقدّمه لغد، فما أحراه بأن يتقي الله تعالى في عمل يعمله من صغير وكبير.

عودة الى أهل البيت عليهم السلام في ساحة الكوفة

ونعود مرة أُخرى الى ساحة الكوفة لنستمع الى الخطاب الحسيني الذي يرفعه أهل البيت عليهم السلام في ذلك الحشد من الناس.

خطاب فاطمة بنت الحسين عليها السلام

وخطبت يومئذ السيدة فاطمة بنت الحسين عليها السلام، وكانت جليلة القدر، شهد لها أبوها بذلك عندما خطب إليه الحسن المثنى إحدى ابنتيه، قال له:

١- يس: ١٢ .

٢- البقرة: ١١٠ و٢٢٣.

٣- الحشر: ١٩.

انـي اخـتار لـك فاطمة فهي أكثر شبهاً بأمي فاطمة. أما في الدين فتقوم الليل كلّه وتصوم النهار.

قامت فاطمة عليها السلام في ذلك الجمع بعد خطاب عمّتها، وقالت[١]:

«الحَمْـدُ لله عَـدَدَ الـرَّمْلِ والحَصـى، وَزِنَـةَ العَرْشِ إلى الثّرى، أحْمَدُهُ وَأؤمِـنُ بِـه وَأتَوكَّلُ عَلَيْه وَأشْهَدُ أنْ لا إله إلاّ اللهُ وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ وَأنّ مُحَمّـداً صـلى الله عليه وآله عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ وَأنَّ ذرِيَتَهُ ذُبِحُوا بِشَطِّ الفُرات بِغَيْرِ ذَحْلٍ وَلا تَرات.

اللّهُمَّ إنّي أعُوذُ بِكَ أنْ أفْتَرِيَ عَلَيْكَ الْكَذْب وَأنْ أقُولَ عَلَيْكَ خلافَ ما أنْزَلْـتَ مِـنْ أخْـذ العُهُـود لوَصيِّه عَليٍّ بن أبي طالب عليه السلام الْمَسلُوب حَقُّهُ الْمَقْـتُول بِغَـيْرِ ذَنْب ـ كَما قُتلَ وُلْدُهُ بالأمْس ـ في بَيْت مِنْ بيُوت الله، فيه مَعْشَـرٌ مُسْلمة بألْسنَتهِمْ، تَعْساً لرُؤوسهِمْ ما دَفَعَتْ عَنْهُ ضَيْماً في حَياته وَلا عِـنْدَ مَماتـه، حَـتّى قَبَضْـتَهُ إلَـيكَ مَحمُودَ النَّقيبَة طَيِّبَ العَريكَة، مَعرُوفَ المَناقـب، مَشْـهُورَ المَذاهـب، لَـمْ تَأخُذْهُ فيكَ لَوْمَةُ لائم وَلا عَذْلُ عاذل، هَدَيْـتَهُ يا ربِّ للإسلامِ صَغيراً وَحَمدتَ مَناقبَهُ كَبيراً، وَلَمْ يَزَلْ ناصحاً لَكَ وَلِرَسُـولكَ صَـلواتكَ علـيه وَآلـه حَتّى قَبَضْتَهُ إليكَ زاهداً في الدّنْيا غَيْرَ حَـريص عَلَـيْها، راغِباً في الآخرَة مُجاهداً لَكَ في سبيلكَ، رَضيتَهُ فَاخْتَرْتَهُ وَهَدَيْتَهُ إلى صراط مُسْتَقيم.

١- هـذه روايـة زيـد بـن موسـى. قـال حدثني أبي عن جدي عليه السلام قال: خطبت فاطمة الصغرى بعد أن وردت من كربلاء فقالت: (وأورد الخطبة).

وزيـد بـن موسـى بـن جعفـر بـن محمـد بن علي بن الحسين ثائر خرج في العراق مع أبي السرايا وتوفي نحو سنة (٢٥٠ هـ) (مقاتل الطالبيين: ٥٣٤).

أمَّا بَعْدُ: يا أهْلَ الكُوفَة! يا أهْلَ المَكْرِ وَالغَدْرِ وَالخُيلاء! فإنّا أهْلُ بَيْت، ابتَلانا اللهُ بكُمْ وَابْتَلاكُمْ بنا، فَجَعَلَ بَلاءَنا حَسَناً وَجَعَلَ علْمَهُ عنْدَنا، وَفَهْمَهُ لَدَيْنا. فَنَحْنُ عَيْبَةُ علْمه وَوعاء فَهْمه وَحكْمته وَحُجَّتُهُ عَلى الأرْضِ في بلاده لعباده أكْرَمَنا اللهُ بكَرامَته وَفَضّلَنا بنَبيِّه مُحمّدﷺ عَلى كَثير ممَّن خَلَقَ تَفْضيلاً بَيِّناً.

فَكَذَّبْتُمُونا وكَفَّرْتُمُونا وَرَأيْتُمْ قتالَنا حَلالاً وَأمْوالَنا نَهْباً، كأنّنا أوْلادُ تَرْك أو كابُل، كما قَتَلْتُمْ جَدّنا بالأمْس، وَسُيُوفُكُمْ تَقْطُرُ من دمائنا أهْلِ البَيْت، لحقد مُتَقَدِّم. قَرَّت لذلكَ عُيُونُكُمْ، وَفَرحَتْ قُلُوبُكُمْ إفتراءً على الله وَمَكراً مَكَرْتُمْ ﴿وَاللهُ خَيْرُ الماكرينَ﴾.

فَلا تَدْعُوَنّكُمْ أنفُسُكُمْ الى الجَذَلِ بما أصَبْتُمْ من دمائنا وَنالَتْ أيديكُمْ منْ أموالنا، فإنّ ما أصابَنا منَ المَصائب الجَليلَة وَالرّزايا العَظيمَة ﴿في كتَاب مِّن قَبْلِ أن نَّبْرَأَهَا إنَّ ذَلكَ عَلَى اللَّه يَسيرٌ ۞ لكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحبُّ كُلَّ مُخْتَال فَخُور﴾.

تَباً لَكُمْ فانْتَظرُوا اللّعْنَةَ وَالعَذابَ، فَكَأنْ قَدْ حَلَّ بكُمْ وَتَواتَرَتْ من السّماء نَقَماتٌ فَيُسحتَكُمْ بعذاب وَيُذيقَ بَعْضَكُمْ بَأسَ بَعض، ثُمّ تَخْلُدونَ في العَذابِ الأليمِ يَوْمَ القيامَة، بما ظَلَمْتُمُونا، ﴿ألاَ لَعْنَةُ اللّه عَلَى الظَّالمينَ﴾.

وَيْلَكُمْ! أتدرُونَ أيّةَ يد طاعَنَتْنا منْكُمْ؟ وَأيّةَ نَفس نَزَعَتْ إلى قتالنا؟! أمْ بأيَة رجْل مَشَيْتُمْ إلَيْنا تَبْغُونَ مُحارَبَتَنا؟ قَسَتْ والله قُلُوبُكُمْ وَغَلُظَتْ أكْبادُكُمْ وَطُبِعَ عَلى أفْئدَتكُمْ، وَخُتمَ عَلى سَمْعكُمْ وَبَصَركُمْ، وَسَوّلَ لَكُمْ الشّيْطَانُ وأمْلى لَكُمْ وَجَعَلَ عَلى بَصَرِكُمْ غشاوَةً فَأنْتُم لا تَهْتَدُون.

فَتَباً لَكُمْ يا أَهْلَ الكُوفَة! أيَّ تُرات[١] لرَسُول الله قبلكُمْ وَذُحُول لَهُ لَدَيْكُمْ بما عَنَدْتُمْ بأخيه عَليّ بْن أبي طالب جَدّي، وَبنيه وَعتْرَته الطّيّبينَ الأخْيار صَلَواتُ الله وَسَلامُهُ عَلَيْهمْ فافْتَخر بذلكَ مُفْتَخرٌ فَقالَ:

نَحْنُ قَتَلْنا عَليّاً وَبَني عَليٍّ بسُيُوف هنْديَة وَرماحِ
وَسَبَيْنا نساءَهُمْ سَبْيَ تُرْك وَنَطَحْناهُمُ فَأيَّ نطاحِ

بفيكَ أيها القائلُ! الكَثْكَثُ[٢] وَالأثْلَبُ[٣]، إفْتَخَرْتَ بقَتْل قَوْم زَكّاهُمُ الله، وَأذْهَبَ عَنْهُمُ الرّجْسَ وَطَهّرهُمْ تَطْهيراً، فَاكظمْ[٤] وَاقْعِ[٥] كَما أقعى أبُوكَ فإنّما ﴿لكُلّ إمْرِىء مَا اكْتَسَبَ﴾ وَما قَدّمَتْ يَداه؟

أحَسَدْتُمُونا ـ ويَلاً لَكُمْ ـ عَلى ما فَضّلنا الله؟

فَما ذَنْبُنا إنْ جاشَ دَهراً بُحُورُنا
وَبَحرُكَ ساج لا يُواري الدّعامصا[٦]

﴿ذَلكَ فَضْلُ الله يُؤْتيه مَنْ يَشاءُ وَالله ذُو الفَضْل العَظيم﴾ ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ من نُّورٍ﴾.

قال: فارتفعت الأصوات بالبكاء والنحيب، وقالوا: حسبك يا ابنة الطيّبين. فقد احرقت قلوبنا وانضجت نحورنا، واضرمت أجوافنا، فسكتت[٧].

١- في نسخة أخرى: تراث.

٢ـ الكثكث: دقاق التراب.

٣ـ الاثلب: دقاق الحجر.

٤ـ اسكت على غيضك.

٥ـ الاقعاء جلوس الكلب على استه.

٦- ساج: ساكن. والدعموص: دُوَيْبَة تغوص في الماء، الجوهري في الصحاح، والبيت للأعشى.

٧- الملهوف للسيد ابن طاووس: ١٨٠ ـ ١٨٤ تحقيق عقيقي بخشايشي.

خطاب السيدة أم كلثوم لأهل الكوفة

خطبت أُمّ كُلثوم بنت عليّ عليها السلام في ذلك اليوم من وراء كِلّتها رافعةً صَوْتَها بالبُكاء. فقالت:

«يا أهْلَ الكُوفَة! سَوْأةً لَكُمْ ما لَكمْ خذلْتُم حُسيناً، وَقَتَلْتُمُوهُ وَانْتَهَبْتُمْ أموالَهُ وَوَرِثتمُوهُ وَسَبَيْتُمْ نساءَهُ، ونَكبْتُمُوهُ؟ فَتَبّاً لَكُمْ وَسُحْقاً.

وَيْلَكُمْ! أتَدْرُونَ أيّ دَواه دَهَتْكُمْ؟ وَأيّ وِزْر عَلى ظُهُورِكُمْ حَمَلْتُم؟ وَأيّ دماء سَفَكْتُمُوها؟ وَأيّ كَريمَة أصبتُمُوها؟ وَأيّ صَبيَة سَلَبْتُمُوها؟ وَأيّ أمْوال إنتَهَبْتُمُوها؟ قَتَلْتُمْ خَيْرَ رِجالات بَعْدَ النَّبيّ وَنُزِعَت الرَّحْمةُ مِنْ قُلُوبكُمْ ألا إنّ حِزْبَ الله هُمُ الغالبُونَ وَحِزْبَ الشّيطانِ هُمُ الخاسرُونَ.

ثم قالت:

قَتَلْتُمْ أخي صَبْراً فَوَيلٌ لأُمّكُمُ ... سَتُجْزَوْنَ ناراً حَرُّها يَتَوَقَّدُ
سَفَكْتُمْ دماءً حَرّمَ اللهُ سَفْكَها ... وَحَرَّمَها القُرآنُ ثُمَّ مُحَمّدُ
ألا فَأبشِرُوا بالنّارِ إنّكُمُ غداً ... لَفي قَعْرِ نار، حَرُّها يَتَصَعّدُ[١]
وإنّي لأبكي في حَياتي عَلى أخي ... عَلى خَيْرِ مَنْ بَعْدَ النَّبيِ سَيُولَدُ
بِدَمْع غزيرِ مُسْتَهِلٍّ مُكَفْكَف ... عَلى الخَدِّ مِنّي دائماً لَيسَ يَخْمُدُ

قال الرّاوي: فَضجّ النّاس بالبكاء والنّوح ونشرت النّساء شُعُورهنّ، ووضعن التّرابَ على رؤوسهنّ، وخمشنَ وجوههنّ، ولطمن خُدُودَهنّ، ودَعَونَ بالويلِ والثُّبورِ، وبكى الرّجال ونتفوا لحاهُم، فلم يُرَ باكيةٌ وباكٍ أكثرُ من ذلك اليوم».[٢]

١- حياة الإمام الحسين عليه السلام ٣: ٣٦٣، للشيخ باقر القرشي نقلاً عن مخطوطة مقتل الحسين عليه السلام لعبدالله نور الله.

٢- اللهوف للسيد ابن طاووس: ١٨٢ ـ ١٨٤.

خطاب علي بن الحسين زين العابدين عليه السلام

وجيء بعليّ بن الحسين عليه السلام على بعير ضالع والجامعة في عنقه ويداه مغلولتان الى عنقه وأوداجه تشخب دماً وأومأ الى الناس أن اسكتوا فسكتوا، فقامَ قائماً فَحمد الله وأثنى عليه وذكر النبيّ بما هو أهله ثم صلّى عليه ثم قال:

«أيُّها النّاسُ! مَنْ عَرَفَني فَقَدْ عَرَفَني وَمَنْ لَمْ يَعرِفْني فأنا أُعرِّفُهُ بنَفْسي: أنا عليُّ بْنُ الحُسَيْنِ بن عليٍّ بن أبي طالب، أنا ابْنُ مَنْ انْتُهكَتْ حُرْمَتُهُ وَسُلبَتْ نعْمَتُهُ وَانْتُهبَ مالُهُ وَسُبيَ عيالُهُ.

أنا ابْنُ المَذْبُوحِ بشَطِّ الفُراتِ منْ غَيْرِ ذَحْلٍ وَلا تُرات، أنا ابْنُ مَنْ قُتلَ صَبْراً، وكَفى بذَلكَ فَخراً.

أيّها النّاسُ! ناشَدْتُكُمُ اللهَ! هَلْ تَعْلَمُونَ أنّكُمْ كَتَبْتُمْ إلى أبي وَخَدَعْتُمُوهُ، وَأَعْطَيْتُمُوهُ مِنْ أنْفُسكُمْ العَهْدَ وَالميثاقَ وَالبَيْعَةَ وَقاتَلْتُمُوهُ وَخَذَلْتُمُوهُ، فَتَبّاً لما قَدَّمْتُمْ لانْفُسكُمْ وَسَوْأَةً لرَأْيكُمْ، بأيّة عَيْنٍ تَنْظُرُونَ إلى رَسُول الله صلى الله عليه وآله إذْ يَقُولُ لَكُمْ قَتَلْتُمْ عتْرَتي وَانْتَهكْتُمْ حُرْمَتي فَلَسْتُمْ منْ اُمّتي؟

قال الرّاوي: فارتفعت الأصوات من كلّ ناحية، ويقول بعضهم لبعض: هَلكتم وما تعلمون.

فقال عليه السلام: رَحِمَ اللهُ إمرَءاً قَبِلَ نَصيحَتي وَحَفظَ وَصيَّتي في اللهِ وَفي رَسُوله وَأهْلِ بَيْته، فإنّ لَنا في رَسُول الله اُسْوَةً حَسَنَةً.

فقالوا بأجمعهم: نحن كلنّا يابن رسول الله! سامعون مطيعون حافظون لذمامك غير زاهدين فيك ولا راغبين عنك فأمرنا يرحمك الله فإنّا حربٌ لحربك وسلمٌ لسلمكَ لنأخذنّ يزيداً (لعنه الله) ونبرأ ممّن ظلمكَ وظلمنا»[1].

١- راجع الملهوف للسيد ابن طاووس، ومقتل الحسين عليه السلام للسيد عبدالرزاق المقرّم.

وانقلب المشهد الأوّل الذي أعدّه الطاغية عبيدالله بن زياد في الكوفة الى مشهد عاطفي لصالح أهل البيت عليهم السلام، أثار سخط الناس على ابن زياد ومن استعمله على الكوفة، ورفع الناس أصواتهم في شجب الجريمة، والبراءة من عمل الطاغية ابن زياد.

ولم يجد الحرس الذين أوكلهم ابن زياد لحفظ النظم وحراسة الساحة إلاّ أن يُبعّدوا سبايا أهل البيت عليهم السلام والرؤوس الشريفة عن الجمهور الغاضب والنساء النائحات من أهل الكوفة.

وهكذا انتهى المشهد الأول من مشاهد الاحتفاء بانتصار بني اُمية في الطف، بفضيحة اعلامية وسياسية لبني اُمية.

المشهد الثاني

أعدّ الطاغية حفلاً آخر في قصره لاستقبال السبايا من بنات رسول الله صلى الله عليه وآله فادخل الرؤوس الشريفة في المجلس، للتشهير بأهل البيت عليهم السلام، وكسر شوكتهم وحرمتهم في نفوس الناس، وكان أثر هذا المشهد أسوا على الطاغية من المشهد الأوّل، وأثار الناس، وغضب الناس وبكوا، واستنكر هذا المشهد بعض من كان حاضراً في هذا المشهد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله.

يقول الشيخ المفيد: «جلس ابن زياد للناس في قصر الامارة وأذن للناس إذناً عاماً، وأمر باحضار الرأس، فاحضر بين يديه فجعل ينظر إليه، ويبتسم،

وبيده قضيب يضرب به ثناياه»[1].

وروى ابن حجر في الصواعق: «ان ابن زياد أمر بالرأس فوضع على ترس في يمينه، والناس سماطان»[2].

أنس بن مالك يستنكر المشهد

يقول سبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص: «لما وُضِعَ رأس الحسين عليه السلام في طست بين يدي ابن زياد وجعل يضرب ثناياه بالقضيب، وقال في حُسنه شيئاً، وكان عنده أنس بن مالك، فبكى، وقال: كان أشبههم برسول الله صلى الله عليه وآله»[3].

وقال ابن نما في مثير الأحزان: «ان أنس بن مالك قال: شهدت عبيدالله بن زياد، وهو ينكث بقضيب على أسنان الحسين عليه السلام ويقول: انّه كان حسن الثغر، فقلت: أما والله لا سوأنك، لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله يُقبّل موضع قضيبك من فيه»[4].

قيس بن عباد يستنكر المشهد

يقول السبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص: «قال الشعبي: وكان عند ابن زياد قيس بن عباد، فقال له ابن زياد: ما تقول فيّ وفي الحسين عليه السلام، فقال: يأتي يوم القيامة جده وأبوه فيشفعون فيه، ويأتي جدّك وأبوك

١- الإرشاد للشيخ المفيد: ٢٢٧.

٢- الصواعق المحرقة: ١٩٦.

٣- تذكرة الخواص: ١٤٦.

٤- مثير الأحزان لابن نما، الطبعة الحجرية ٤٩، كما في هامش نفس المهموم للمحدث القمي تحقيق الاستادي: ٤٠٣.

فيشفعون فيك، فغضب ابن زياد وأقامه من المجلس»[١].

رجل من بكر بن وائل يقسم أن يقاتل ابن زياد

يقول المدائني: «وكان ممّن حضر الواقعة رجل من بكر بن وائل، يقال له جابر أو (جبير)، فلمّا رأى ما صنع ابن زياد قال في نفسه، لله عليَّ أن لا أُصيب عشرة من المسلمين خرجوا على ابن زياد إلاّ خرجت معهم، فلمّا طلب المختار بثأر الحسين عليه السلام، والتقى العسكران برز هذا الرجل، وهو يقول:

وكل عيش قد أراه فاسداً إلا مقام الرمح في ظل الفرس[٢]

صرخة زيد بن أرقم في وجه الطاغية

وروى الطبري في تفاصيل هذا المشهد عن أبي مخنف الأزدي عن حميد بن مسلم، قال: دعاني عمر بن سعد، فسرّحني الى أهله لأُبشرهم بما فتح الله عليه، وبعافيته، فاقبلت حتى أتيت أهله، فاعلمتهم ذلك، ثم أقبلت حتى أدخل فوجدت ابن زياد قد جلس للناس فدخلت فيمن دخل، فإذا رأس الحسين عليه السلام موضوع بين يديه، وإذا هو ينكت بقضيب بين ثنيتيه ساعة، فلما رآه زيد بن أرقم لا ينجم[٣] عن نكته بالقضيب. قال له: أعْلِ بهذا القضيب عن هاتين الثنيين فوالذي لا إله غيره، لقد رأيت شفتي رسول الله

١- تذكرة الخواص: ١٤٦.

٢- تاريخ الطبري٤: ٥٥٦، تاريخ مدينة دمشق لابن عساكر٣٧: ٤٦٠ والشعر لشريك ابن جرير الثعلبي وعند الطبري التغلبي.

٣- لا يكف، لا يقلع، لا ينقطع.

ﷺ على هاتين الشفتين يقبلهما ثم انفضح[١] الشيخ يبكي.

فقال له ابن زياد: ابكى الله عينيك، فوالله لولا انّك شيخ قد خرفت وذهب عقلك لضربت عنقك. قال فنهض فخرج.

فلمّا خرج سمعت الناس يقولون: والله لقد قال زيد بن أرقم قولاً لو سمعه ابن زياد لقتله، قال قلت: ما قال؟

قالوا: مرّ بنا وهو يقول: ملّك عبد عبداً فاتخذهم تُلُدا[٢]. أنتم يا معشر العرب العبيد بعد اليوم، قتلتم ابن فاطمة وأمّرتم ابن مرجانة، فهو يقتل خياركم، ويستعبد شراركم، فرضيتم بالذل، فبعداً لمن رضى بالذل[٣].

وقفة عند كلمة زيد بن أرقم

كلمة زيد بن أرقم دقيقة، وتحتاج الى وقفة طويلة لانجدها الآن، ولكننا نستطيع الآن أن نشرح مفردات هذه الكلمة، إذا كنّا لا نجد وقتاً في تفصيل هذه الكلمة وشرحها.

فهو يشير الى طبقات ثلاثة من (العبيد) ويقصد بالعبد المعنى النفسي للعبد، وليس المعنى الشرعي، وهو من لا يملك القرار والإرادة، وهذا هو الفرق بين الحر والعبد، فإنّ الحر يملك حق القرار والإرادة، والعبيد لا يملكون، وإنّما قرارهم وإرادتهم بيد مولاهم الذي يملك أمرهم، ولا فرق أن يكون مسيّراً محكوماً لاهوائه وشهواته، أو مُسيّراً ومحكوماً لطاغوت

١- انفجر باكياً، لا يملك نفسه عن البكاء.

٢- التلد: بفتح التاء، وضم اللام ما ولد عندك من الإماء، والجملة يمكن أن تقرأ، كما سجلناه وهو أقوى (ملّك عبد عبداً) أي أن يزيد ملّك ابن زياد الناس فاتخذ ابن زياد الناس تُلُدا عبيداً وإماءً.

٣- تاريخ الطبري٧: ٣٧١.

يحكمه من فوقه، فكلٌ منهما عبد مسلوب الإرادة والقرار.

وهذا اللون من العبودية حالة شائعة في أوساط الناس والناس لا يعرفون، فمن الناس من يكون عبداً لهواه، أسيراً لشهواته في زي الأحرار، ومن الناس من يكون محكوماً مسيّراً للطغاة الذين يتحكمون فيه، وهو في زي الأحرار.

وهنا يقول زيد بن أرقم: أمامنا ثلاث طبقات من العبيد، الطبقة الأُولى يزيد بن معاوية طاغوت عصره وهو أسير شهواته وعبد أهوائه. والطبقة الثانية عبيدالله بن زياد، وهو طاغوت على الناس، ذليل محكوم عند يزيد، وهو نوع غريب من العبودية المزدوجة، والطبقة الثالثة من العبيد (الناس) الذين ملّكهم يزيد لابن زياد، ومَلكهم ابن زياد بأمر من يزيد بن معاوية.

وهكذا ملّك الناس عبدٌ لعبد آخر مثله.

وهذا التمليك لايعني بالضرورة قبول العبودية من الناس، فإنّ العبودية هنا مقولة (عقديّة) ذات طرفين، وليست ايقاعاً قائماً بطرف واحد، فلابد فيها من التمليك وقبول الملكية (التعبيد من جانب وقبول العبودية من جانب آخر).

وقد كان بوسع الناس أن لا يقبلوا هذه العبودية لابن زياد ولطاغيته يزيد من فوقه، ويرفضوا خلافة يزيد وامارة ابن زياد، ولكنهم ـ للأسف ـ فعلوا ذلك، واستجابوا لهذا التأمير والتمليك والتعبيد، ولم يرفضوا، ولم يقاوموا، والى ذلك يشير زيد بن أرقم، فيقول: (أمّرتم ابن زياد)، أي قبلتم امارته، ولم ترفضوا، ولم تقاوموا، ويقول: (فرضيتم بالذل).

وبهذه الصورة تتم عقد العبودية، تمليك من طرف ورضا بالذل من

طرف آخر. وهذا هو جوهر العبودية، وعندما يتحوّل الإنسان من الحرية الى العبودية لإنسان مثله، يفقد الإرادة وحق القرار، ويتولّى عنه الذين يستعبدونه حقّ القرار والإرادة.

وهذه العلاقة المشؤومة بين الطاغية والذين يستضعفهم لا تنتج إلاّ (تلّدا). وهو نتاج مشؤوم لعلاقة مشؤومة.

فإن نتاج العبيد العبودية، ونتاج الذليل الذل، ونتاج الرضوخ للظلم الرضوخ للظلم.

وهذا هو ما كان يقوله زيد للراضخين للظلم من حوله، الذين حضروا مجلس ابن زياد ورأوا ما يفعله ابن زياد برأس ابن بنت رسول الله، فلم يغضب منهم أحد، ولم يشهر منهم أحد سيفه ولم يرفع منهم أحد صوته على ابن زياد.

فقال لهم: (ملّك عبد عبداً) وهذه هي العلاقة الاستكبارية المشؤومة بين المستكبرين والمستضعفين. (فاتخذهم تلّدا)، وهذه هي النتيجة المشؤومة لتلك العلاقة المشؤومة.

ثم يبيّن لهم زيد أن هذا الذل والرضوخ سوف يدوم وتتصل حلقاته في حياتهم ما لم يكفّر الأبناء عن ذنب الآباء بدمائهم فيقول:

(أنتم يا معشر العرب الأذلاّء بعد اليوم).

إنّ ما جنى الناس على أنفسهم في عهد بني اُمية، وما جناه بنواُمية على الناس أمر غريب، يستتبع هذه النتيجة المشؤومة بالتأكيد، فإنّ هؤلاء قتلوا ابن بنت رسول الله ﷺ، وهو وليّهم، وأمّروا ابن مرجانة، وهو عدوّهم، فوالوا عدوّهم وتبرأوا من وليّهم، وكان ينبغي بهم إن كانوا أحراراً في

دنياهم أن يصنعوا بخلاف ذلك، يوالوان وليّهم ويعادون عدوّهم، وهؤلاء والوا أعداءهم وعادوا أولياءهم.

فيقول لهم: (قتلتم ابن فاطمة، وأمّرتم ابن مرجانة)، وهي حالة ردّة كاملة في مقاييس الولاء والبراءة، وعندما تنتكس الأمة في ولائها وبرائتها، فتضع ولاءها مكان البراءة، وبراءتها مكان الولاء، تفقد كل إرادتها وكرامتها وحريّتها، وتتحول الى سلعة في سوق النخاسين.

وماذا يتوقع الناس يومئذ من هذه الردّة العجيبة في الولاء والبراءة، غير أن يقتل الطاغية خيارهم الذين لا يرضخون للطاغية ويقاومونه ولا يطاوعونه، ويستعبد شرارهم الذين يطاوعونه، ولا يقاومونه، وكذلك كان، فقد قتل بنوأمية خيار الناس واشرافهم الذين أعلنوا رفضهم لهم، واستعبدوا الذين طاوعوهم، وأذلوا رقابهم لهم، يقول لهم زيد، وهو ينتحب بالبكاء، خارجاً من مجلس ابن زياد: (فهو يقتل خياركم ويستعبد شراركم).

ولم يسمع الطاغية ابن زياد كلمة (زيد) بالتأكيد وإلاّ لقتله، كائناً من كان، ولكن هل سمع الناس يومئذ كلمة زيد ووعوها، وعرفوا ما ينتهي إليهم أمرهم، عندما أعرضوا عن بني علي عليه السلام وطاوعوا بني أُمية؟!!

حوار السيدة زينب عليها السلام مع الطاغية

وانحازت زينب ابنة أميرالمؤمنين عليه السلام عن النساء وهي متنكرة، فقال الطاغية من هذه المتنكّرة؟

قيل له: ابنة أميرالمؤمنين، زينب العقيلة.

فأراد أن يحرق قلبها بأكثر ممّا جاء إليهم، فقال متشمتاً: الحمد لله الذي فضحكم وقتلكم وأكذب أُحدوثتكم.

فقالت عليها السلام: الحمد لله الذي أكرمنا بنبيّه محمداً وطهّرنا من الرجس تطهيرا، إنّما يفتضح الفاسق، ويكذب الفاجر، وهو غيرنا.

قال ابن زياد: كيف رأيت فعل الله بأهل بيتك؟

قالت عليها السلام: ما رأيت إلاّ جميلاً، هؤلاء قوم كتب الله عليهم القتل فبرزوا الى مضاجعهم وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاجّ وتخاصم[1] فانظر لمن الفلج يومئذ ثكلتك أُمك يابن مرجانة[2].

فغضب ابن زياد واستشاط من كلامها معه في ذلك الحشد.

فقال له عمرو بن حريث: إنّها امرأة وهل تؤاخذ بشيء من منطقها ولا تلام على خطل.

فالتفت إليها ابن زياد وقال: لقد شفى الله قلبي من طاغيتك والعصاة المردة من أهل بيتك.

فرقّت العقيلة وقالت: لعمري لقد قتلت كهلي وأبرت أهلي وقطعت فرعي واجتثثت أصلي فإن يشفك هذا فقد اشتفيت[3].

وفي كلام السيدة زينب عليها السلام رقّة العاطفة ونفوذ البصيرة والوعي، فهي إنسانة مرهفة الحس والعاطفة ترق للمصاب الفجيع الذي ألمّ بها، فتقول:

«لعمري لقد قتلت كهلي، وأبرت أهلي، وقطعت واجتثثت أصلي، فإن يشفك هذا فقد اشتفيت».

وهي في نفس الوقت ذات بصيرة نافذة في سنن الله تعالى ودينه، تلملم

١- تاريخ الطبري٦: ٢٦٢.

٢- الملهوف للسيد ابن طاووس: ٩٠.

٣- تاريخ الطبري٦: ٢٦٣.

جراحها، وتترفع على العاطفة، لتبصر هذه الفجيعة الموجعة من خلال دين الله وسننه في التاريخ والمجتمع.

فتقول عندما سألها الطاغية كيف رأيت فعل الله بأهل بيتك؟ فتقول: «ما رأيت إلاّ جميلاً» ان الذي حدث لها ولأخيها ولأهل بيتها حَدَثَ بعلم الله وسلطانه فقد كان الله يعلم بما يحدث في كربلاء، وكان قادراً عى أن يحول بينهم وبين ما صنعوا بآل بيت رسول الله ﷺ، والله تعالى جميل، رؤوف بعباده، ولو كان الذي حدث لآل البيت يضرّ بهم، لحال الله تعالى بينهم وبين ما يريدون، وكان الله تعالى على ذلك قديراً، ولم يخرج الطاغية في بطشه وفتكه عن قبضة سلطان الله تعالى.

ولكن الله تعالى جعل ابتلاء المؤمنين بالخوف والجوع والنقص في الأموال والأنفس والثمرات طريقاً الى رضوانه وصلواته ورحمته... وقد جعل الله تعالى أهل البيت على طريق رضوانه ورحمته وصلواته.

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾[1].

ولن يسلك الإنسان الطريق الى رضوان الله ورحمته إلاّ من خلال هذه الضرّاء والبأساء، وما يصيب الإنسان في أزمات الابتلاء من زلزال في النفوس ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ

١- البقرة: ١٥٥ ـ ١٥٧.

قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾[1]".

إنّ هذه الهزّات والزلازل التي تصيب المؤمنين وهذه البأساء والضرّاء والقتل هو السبيل السالك الى رضوان الله ورحمته، وهذه مشيئة الله تعالى، وليس في مشيئة الله إلاّ الجميل.

والسيدة زينب عليها السلام تدرك هذه البصائر من كتاب الله، وتعرف أن أخاها وأهل بيتها خرجوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر.

وقد قدّر الله تعالى وكتب لهم القتل، فبرزوا الى مصارعهم بأمر من الله تعالى ورضاه وابتغاءً لمرضاته، فلا ترى فيما أراد الله تعالى به وبها وبأهل بيتها إلاّ الجميل. وهي مطمئنة الى ذلك، واثقة بذلك، فتقول وبكل ثقة واطمئنان في جواب الطاغية: «ما رأيت إلاّ جميلا» ولكن أنّى يدرك الطاغية البليد هذا الجمال.

وبهذه البصيرة الصافية النفّاذة تتجاوز عواطفها وآلامها وتتقبل المصاب الفجيع بسكون واطمئنان وقوّة وثقة بالله تعالى. وهي تعلم ان الله تعالى سوف يجمع بين أخيها الإمام الشهيد عليه السلام وبين الطاغية الذي اسكرته نشوة النصر ومصرع الطيبين من آل محمد صلى الله عليه وآله، وهناك ينقلب الحال، ويخزى الطاغية ومن أمّره، ويفلح الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه.

فتقول له، وهو في نشوة النصر، وسكرة الغرور: «وسيجمع الله بينك وبينهم فتحاجَ وتخاصم، فانظر لمن يكون النصر يومئذ».

١- البقرة: ٢١٤.

اللغط والاستنكار والبكاء في القصر

وكان لهذا المشهد اسوأ الأثر على القصر، وارتفع اللغط والاستنكار، وضجّ الناس بالاستنكار والبكاء وخاف الطاغية أن يفقد السيطرة على الأمن، فأمر بإعادة أهل البيت الى الحبس بدار جنب المسجد الأعظم في الكوفة، فأُعيدوا الى الحبس[1].

يقول حاجب الطاغية: «كنت معهم حين أمر بهم الى السجن، فرأيت الرجال والنساء مجتمعين يبكون ويلطمون وجوههم»[2].

وروى الشيخ الصدوق في الأمالي عن حاجب الطاغية: «ان الطاغية بعدما سمع اعتراض الناس ورأى سخطهم أمر بعلي بن الحسين عليه السلام فغل وحمل مع النسوة والسبايا الى السجن، وكنت معهم فما مررنا بزقاق إلاّ وجدناه ملء رجال ونساء يضربون وجوههم ويبكون، فحبسوا في سجن وطبق عليها»[3].

وهكذا ينتهي هذا المشهد باعتراض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله والتابعين وسخط الناس وغضبهم ولغطهم في المجلس، مما يضطرّ ابن زياد أن يأمر بوقف هذا العرض، ويأمر بارجاع أهل البيت عليهم السلام مخفورين مغلولين الى السجن، ويطبق عليهم فيه، ويفشل العرض فشلاً كاملاً.

المشهد الثالث

كان الطاغية قد أعدّ المشهد الثالث لاستعراض انتصارات الأمويين على أهل البيت عليهم السلام، في الجامع الأعظم في الكوفة، وأعد لذلك الجامع، واعلن

١- راجع الملهوف: ٩١، والمقتل للخوازمي ٢: ٤٢.

٢- روضة الواعظين: ١٦٣.

٣- أمالي الصدوق: ٩٩، المجلس ٣١.

للناس الأمر فاجتمع الناس في الجامع، وبدأ ابن زياد العرض بخطابه فأحبط الله كيد الطاغية وعرضه من بدايته، حيث قام العبد الصالح عبدالله بن عفيف الأزدي رحمه الله فشتمه وشتم أباه وشتم يزيد وأباه ولعنهم، فأمر الجلاوزة بالقبض عليه، فوقف الأزد معه، فلم يتمكنوا منه، وكثر اللغط بين الناس في المجلس، وانفضّ المجلس بخيبة الطاغية وفشله.

وإليك تفصيل ما حدث يومئذ برواية السيد ابن طاووس رحمه الله في اللهوف:

«ثم ابن زياد صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه وقال في بعض كلامه: الحمد لله الذي أظهر الحق وأهله، ونصر أميرالمؤمنين وأشياعه، وقتل الكذّاب ابن الكذّاب، فما زاد على هذا الكلام شيئاً حتى قام إليه عبدالله بن عفيف الأزدي، وكان من خيار الشيعة وزهّادها، وكانت عينه اليسرى ذهبت في يوم الجمل والأُخرى في يوم صفين، وكان يلازم المسجد الأعظم يصلي فيه الى الليل، فقال: يابن مرجانة إنّ الكذّاب ابن الكذّاب أنت وأبوك، ومن استعملك وأبوه، ياعدوّ الله أتقتلون أبناء النبيين، وتتكلمون بهذا الكلام على منابر المؤمنين.

قال الراوي: فغضب ابن زياد فقال: من هذا المتكلم؟ فقال: أنا المتكلم يا عدوّ الله، أتقتل الذرية الطاهرة التي قد أذهب الله عنها الرجس وتزعم أنك على دين الإسلام، واغوثاه أين أولاد المهاجرين والأنصار لينتقمون من طاغيتك ـ أي يزيد ـ اللعين ابن اللعين على لسان محمد رسول رب العالمين صلى الله عليه وآله.

قال الرواي: فازداد غضب ابن زياد حتى انتفخت أوداجه وقال: عليَّ به. فتبادرت إليه الجلاوزة من كل ناحية ليأخذوه، فقامت الأشراف من الأزد من بني عمّه فخلصوه من أيدي الجلاوزة وأخرجوه من باب المسجد وانطلقوا به الى منزله.

فقال ابن زياد: اذهبوا الى هذا الأعمى أعمى الأزد أعمى الله قلبه كما أعمى عينيه فأتوني به.

قال: فانطلقوا إليه، فلما بلغ ذلك الأزد اجتمعوا واجتمعت معهم قبائل اليمن ليمنعوا صاحبهم.

قال: فلما بلغ ذلك ابن زياد جمع قبائل مضر وضمهم الى محمد بن الأشعث وأمرهم بقتال القوم.

قال الراوي: فاقتتلوا قتالاً شديداً حتى قتل بينهم جماعة من العرب.

قال: ووصل أصحاب ابن زياد الى دارعبدالله بن عفيف فكسروا الباب واقتحموا عليه، فصاحت ابنته: أتاك القوم من حيث تحذر. فقال: لا عليك ناوليني سيفي.

قال: فناولته إياه فجعل يذب عن نفسه ويقول:

أنا ابن ذي الفضل عفيف الطاهر   عفيف شيخي وابن أُم عامر
كم دارع من جمعكم وحاسر   وبطل جدلته مغاور

قال: وجعلت ابنته تقول: يا أبت ليتني كنت رجلاً أخاصم بين يديك اليوم، هؤلاء الفجرة قاتلي العترة البررة.

قال: وجعل القوم يدورون عليه من كل جهة وهو يذب عن نفسه فلم يقدر عليه أحد، وكلما جاءوه من جهة قالت: يا أبت جاءوك من جهة كذا، حتى تكاثروا عليه وأحاطوا به، فقالت بنته: واذلاه يحاط بأبي وليس له ناصر يستعين به. فجعل يدير سيفه ويقول:

أقسم لو يفسح لي عن بصري   ضاق عليكم موردي ومصدري

قال الراوي: فما زالوا به حتى أخذوه، ثم حمل فأدخل على ابن زياد،

فلما رآه قال: الحمد لله الذي أخزاك، فقال له عبدالله بن عفيف: يا عدوّ الله وبماذا أخزاني الله:

والله لو فرّج لي عن بصري ضاق عليكم موردي ومصدري

فقال ابن زياد: يا عدو الله ما تقول في عثمان بن عفان؟ فقال: يا بني عبد علاج يا بن مرجانة ـ وشتمه ـ ما أنت وعثمان بن عفان أساء أو أحسن وأصلح أم أفسد، والله تبارك وتعالى ولي خلقه يقضي بينهم وبين عثمان بالعدل والحق، ولكن سلني عن أبيك وعنك وعن يزيد وأبيه. فقال ابن زياد: والله لا سألتك عن شيء أو تذوق الموت غصة غصة. فقال عبدالله بن عفيف: الحمد لله رب العالمين، أما أني قد كنت اسأل الله ربي أن يرزقني الشهادة من قبل أن تلدك أُمك، وسألت الله أن يجعل ذلك على يدي ألعن خلقه وأبغضهم إليه، فلمّا كف بصري يئست عن الشهادة، والآن فالحمد لله الذي رزقنيها بعد اليأس منها وعرفني الإجابة منه في قديم دعائي، فقال ابن زياد لعنه الله: اضربوا عنقه، فضرب عنقه وصلب في السبخة[1].

رحمك الله يابن عفيف. ماذا كنت ترجو أن تعيش من بعد ذلك اليوم، لو كنت تؤثر العافية، وتلوذ بالسكوت كما سكت غيرك. إنّ امرءً في مثل عمرك لا يطمع أن يعيش طويلاً أكثر من خمس أو سبع سنين أو مثل ذلك. ولكن خطابك الغاضب وصرختك الساخطة أفسدت على الطاغية زهوه وغروره وكبرياءه، وأذلّه أمام ذلك الحشد الكبير من الناس، كسرت بصرختك شوكته وكبرياءه واحتقرته أمام جلاوزته، وكسرت حاجز الخوف الذي كان يهيمن على ذلك الجمهور الكبير.

١- اللهوف للسيد ابن طاووس: ١٤٦ ـ ١٥٠.

ماذا كان ينفعك الخمس والسبع سنين، لو كنت تخلد الى العافية، كما أخلد غيرك... ولكن صرختك الغاضبة التي ارسلتها كزئير الأسد في وجه الطاغية خلّدتك مع علي بن الحسين وزينب عليهما السلام، وحيثما ذكرا ذُكرت معهما.

إنّ كلمة واحدة يشجُّ بها المؤمن ناصية الطاغوت، ويكسر بها كبرياءه، ويعكر بها صفو أحلامه، ويقلق بها باله، ويسلبه كبرياءه تعادل عند الله سنين من الصلاة والصيام، على ما للصلاة والصيام عند الله من قدر كبير.

إنّ موقف عبدالله بن عفيف يومئذ يدل على أن بني أُمية أخفقوا في خطتهم الرامية الى إذلال الأمة، وتطويعها لإرادتهم، وسلب إرادتها وكرامتها وضميرها.

إنّها خمس كلمات، لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة (أنت الكاذب وأبوك ومن ولاّك وأبوه) التي أزعجت الطاغية وأحبطت كل خطته في إقامة هذا الحفل في المسجد الأعظم بالكوفة وسفّهت أحلامه، ولو كان المؤمن لا يأخذ معه الى الله، إلاّ هذه الكلمات الخمسة التي حملها معه ابن عفيف الى الله لكفاه ذلك.

وهكذا عاد هذا المشهد الثالث بالفشل والخيبة على الطاغية،وغضب الناس وسخطوا، وتحدث الناس عن جريمة بني أُمية وابن زياد، فكان عيون الطاغية يرجعون إليه بأخبار سيئة من داخل الكوفة. وكان ممّن يعلن السخط والبراءة من عمل الطاغية، جندب بن عبد الأزدي، وكان شيخاً فأحضره الطاغية ابن زياد فقال له: يا عدو الله ألست صاحب أبي تراب في صفين؟ قال: نعم وأني لأحبّه وافتخر به وامقتك وأباك، سيما الآن وقد قتلت سبط الرسول وصحبه وأهله ولم تخف من العزيز الجبار المنتقم.

فقال ابن زياد: إنّك لأقل حياء من ذلك الأعمى وأني ما أراني إلاً متقرباً الى الله بدمك.

فقال ابن جندب: إذاً لا يقربك الله.

وخاف ابن زياد من نهوض عشيرته فتركه وقال: إنّه شيخ ذهب عقله وخرف وخلى سبيله[1].

فخاف الطاغية أن تتمرّد الكوفة، ويتفاعل هذا الغضب والسخط في نفوس الناس، ويخرج الناس عليه فأمر الطاغية بتسريح الرؤوس الشريفة والسبايا والأسرى من آل البيتﷺ الى الشام مركز الخلافة.

فخرجت الكوفة لتوديع أهل البيتﷺ، وعجّت نساء همدان بالبكاء والنياحة[2] وضجّ الناس بالبكاء عندما غادر موكب أهل البيتﷺ الكوفة مغلولين، قد أوثقوا بالحبال بحالة تقشعر من ذكرها الأبدان، وترتعد مفاصل الإنسان بل الحيوان، كما يقول الفاخوري[3].

وكان علي بن الحسينﷺ يقول: «تنوحون وتبكون فمن الذي قتلنا»[4].

١- مقتل الخوارزمي ٢: ٥٥، نقلاً عن مقتل المقرّم: ٣٩٨.

٢- حياة الإمام الحسين للشيخ باقر القرشي ٣: ٣٦٨ نقلاً عن الحدائق الوردية ١: ١٢٩.

٣- تحفة الأنام في مختصر تاريخ الإسلام: ٨٤

٤- اللهوف: ١٢٩.

المرحلة الثانية من خطاب الثورة الحسينية: في الشام

كان بنواُمية يتوقعون شراً كثيراً وإنكاراً واسعاً من قبل الناس بجريمتهم في قتل الحسين عليه السلام.

ولذلك خطّطوا لعمل إعلامي مضاد في أهم ثلاثة مراكز في العالم الإسلامي يومذاك وهي: الكوفة والشام والحرمان الشريفان.

فأحبط الله تعالى الخطّة بالكامل في الكوفة، حتى كاد أهل الكوفة أن يثوروا على عبيدالله بن زياد، مما اضطرّ ابن زياد الى التعجيل في تسريح أهل البيت عليهم السلام الى الشام.

وسوف نجد أن دخول أهل البيت عليهم السلام بتلك الهيئة الى الشام كان له أثر عكسي على الخطّة الاعلامية لبني اُمية، وأن الأثر السلبي الذي تركه تسريح أهل البيت عليهم السلام الى الشام بتلك الهيئة المزرية كان أشد على بني اُمية من الأثر الذي تركه في الكوفة.

وسوف نستعرض أحداث دخول أهل البيت عليهم السلام الى الشام.

وقد استعرَضْتُ كتب السيرة والتاريخ، عن دخول أهل البيت عليهم السلام على الطاغية يزيد بن معاوية، وما جرى بينهم وبين الطاغية من كلام، فوجدت أن أصحاب السير يسردون الأحداث بعضها مع بعض في غير نظام وترتيب.

ويظهر لي أن يزيد قد أعدّ لاستقبال سبايا وأسرى أهل البيت عليهم السلام أكثر من مشهد ومجلس، وأن كل ما يسرده المؤرخون لا يمكن أن يجتمع في

مكان واحد وزمان واحد.

ويظهر لي ـ والله أعلم ـ ان الاحتفال الأوّل بدخول الأسرى والسبايا من أهل البيت ﷺ كان في قصر له بجيرون من ضواحي دمشق يطل على دمشق، وكان له فيها قصر ومنظر يعرف بمنظر جيرون، وفيه وضع الرأس الشريف أمامه وأخذ يضرب على شفتيه بخيزران بيده، فأنكرت عليه زينب ﷺ، وخطبت خطبتها الشهيرة، وهذا المجلس كان مجلساً رسمياً حضره السفراء والأعيان في المدينة.

والمشهد الآخر في الجامع الأعظم، في محل جامع بني أُمية اليوم، وكان الاذن في هذا اللقاء عاماً، وقد حضره جمهور غفير من الناس، وتكلم فيه علي بن الحسين ﷺ حتى حلّ وقت الظهر، فقطعوا خطابه ﷺ بالأذان، ثم أقاموا الصلاة في نفس المكان. ولم أجد هذا التفصيل فيما بين يدي من مصادر السيرة، ولكن استنبطته من القرائن التي يذكرها المؤرخون وأرباب السير، وسوف تتضح هذه القرائن خلال العرض إن شاء الله[1].

١- قال ياقوت الحموي: جيرون: بناء عند باب دمشق من بناء سليمان بن داود وقيل أن حصن جيرون بدمشق، ثم قال: والمعروف اليوم أن باباً من أبواب الجامع بدمشق وهو الباب الشرقي يقال له باب جيرون. معجم البلدان: ٢: ١٩٩.

ويحتمل أن منظر جيرون شرفة داخل المسجد من قِبل الباب الشرقي ونحن نرجّح القول الأوّل لياقوت وأن جيرون كان على مدخل دمشق (ومن ضواحيها) وكان للطاغية فيها قصر وهو مطلّ على الوديان والرُبى. وقد يشعر بذلك ما أنشده الطاغية:

لما بدت تلك الحمول وأشرقت ... تلك الشموس على ربى جيرون

الدخول الى الشام

تزيّنت مدينة الشام لاستقبال مظاهر النصر الذي أحرزه يزيد في قتال أهل البيت عليهم السلام بكربلاء وخرج الناس بالأفراح والأهازيج لاستقبال الأسرى والسبايا من أهل البيت عليهم السلام.

يقول السيد في اللهوف:

«لما قربوا من دمشق دنت أُم كلثوم من شمر وكان من جملتهم، فقالت له: لي إليك حاجة.

فقال: ما حاجتك؟

قالت: إذا دخلت بنا البلد فاحملنا في درب قليل النظّارة، وتقدّم إليهم أن يخرجوا هذه الرؤوس من بين المحامل، وينحّونا عنها، فقد خزينا من كثرة النظر إلينا، ونحن في هذه الحال.

فأمر في جواب سؤالها أن يُجعل الرؤوس على المحامل في أوساط المحامل، بغياً منه وكفراً، وسلك بهم بين النظّارة على تلك الصفة حتى أتى بهم باب دمشق، فوقفوا على درج باب المسجد، حيث يقام السبي»[1].

هكذا يصف أصحاب السير دخول أهل البيت عليهم السلام على هيئة الأسرى والسبايا مغلولين، مصفدين وسط مظاهر الزينة والفرح في المدينة.

ودنا شيخ من الإمام علي بن الحسين عليه السلام، فقال: الحمد لله الذي أهلككم وأمكن الأمير منكم.

فقال عليه السلام له: يا شيخ أقرأت القرآن.

١- اللهوف: ١٥٥ ـ ١٥٦.

قال: بلى.

قال عليه السلام: أقرأت: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾[١] وقرأت قوله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾[٢] وقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُواْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى﴾[٣]؟

قال الشيخ: نعم قرأت ذلك.

قال عليه السلام: نحن والله القربى في هذه الآيات.

ثم قال له الإمام: أقرأت قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾؟

قال: بلى.

فقال عليه السلام: نحن أهل البيت الذين خصّهم الله بالتطهير.

قال الشيخ: بالله عليك أنتم هم؟

فقال عليه السلام: وحق جدنا رسول الله إنّا لنحن هم من غير شك.

فوقع الشيخ على قدميه يقبّلهما ويقول: أبرأ الى الله ممّن قتلكم وتاب على يد الإمام ممّا فرط في القول معه[٤].

١ـ الشورى: ٢٣.

٢ـ الإسراء: ٢٦.

٣ـ الأنفال: ٤١.

٤- مقتل الحسين عليه السلام للسيد عبدالرزاق المقرّم: ٤١٦، نقلاً عن اللهوف: ١٠٠، وتفسير ابن كثير ٤: ١١٢، ومقتل الخوارزمي ٢: ٦١.

المشهد الأوّل : في جامع الشام

وكان الاحتفال الأوّل بانتصار الخليفة في قتال أهل البيت عليهم السلام في جامع الشام الكبير، شدّوا أبناء رسول الله صلى الله عليه وآله وبناته بحبال، واحداً تلو الآخر على هيئة الأسرى.

وأُقيموا على درج باب الجامع حيث يقام السبي[١]. وأنشأ يزيد يقول، وهو ينظر إليهم:

صبرنا وكان الصبر منا عزيمة واسيافنا يقطعن هاماً ومعصما

نفلق هاماً من رجال أعزّة علينا، وهم كانوا اعق واظلما[٢]

قال الشيخ ابن نما: قال علي بن الحسين عليه السلام: «أُدخلنا على يزيد، ونحن اثنا عشر رجلاً مغللون.

فلمّا وقفنا بين يديه قلت: انشدك الله يا يزيد، ما ظنّك برسول الله لو رآنا على هذه الحال؟

فقال له النعمان بن بشير: اصنع ما كان رسول الله يصنع لو رآهم بهذه الهيئة.

وقالت فاطمة بنت الحسين عليه السلام: يا يزيد بنات رسول الله صلى الله عليه وآله سبايا؟! فبكى الناس وبكى أهل داره[٣].

وقال سبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص: كان علي بن الحسين والنساء موثقين في الحبال، فناداه علي عليه السلام: يا يزيد، ما ظنّك برسول الله لو

١- مقتل الخوارزمي ٢: ٦١، والكواكب الدريّة ١: ٥٦.

٢- مرآة الجنان لليافعي ١: ١٣٥.

٣- مثير الأحزان لابن نما: ٥٤.

رآنا موثقين في الحبال على أقتاب الجمال، فلم يبق في القوم إلاّ من بكى"[1].

فالتفت يزيد الى الإمام علي بن الحسين عليه السلام، وقال: «ايه يا علي، أبوك الذي قطع رحمي، وجهل حقّي، ونازعني سلطاني، فصنع الله به ما رأيت».

فأجابه الإمام علي بن الحسين عليه السلام: ﴿مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۞ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ فنحن لا نأسى على ما فاتنا ولا نفرح بما آتانا.

فغضب يزيد وتلا قوله تعالى:

﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾.

فأجابه الإمام: «هذا في حقّ من ظَلَم لا في حقّ مَن ظُلِم»[2].

ورقى خطيب المنبر في مجلس يزيد فأكثر الوقيعة في علي والحسين عليهما السلام وأكثر الثناء والمديح لمعاوية ويزيد.

فصاح به علي بن الحسين عليه السلام: «لقد اشتريت مرضاة المخلوق بسخط الخالق، فتبوأ مقعدك من النار»[3].

فسأل الإمام علي بن الحسين عليهما السلام يزيد أن يخطب في الناس، وفي كامل البهائي: إنّ ذلك كان يوم الجمعة، وكان الجامع حاشداً بالمصلين، فلم يأذن

١- تذكره الخواص: ١٤٩.

٢- تاريخ الطبري٦: ٢٦٧، والفصول المهمة لابن الصباغ المالكي، والنص الذي نقلناه أعلاه خرج مما وجدناه في المصدرين.

٣- نفس المهموم: ٤٤٩.

له يزيد في ذلك، فلمّا ألحّ عليه حاشيته ومعاوية ابنه أذن له.

يقول المحدث القمي في نفس المهموم:

إنّ علي بن الحسين عليه السلام قال ليزيد:

«أتأذن لي أن ارقى هذه الأعواد فأتكلم بكلام فيه لله تعالى رضى ولهؤلاء أجر وثواب».

فأبى يزيد، وألح الناس عليه فلم يقبل، فقال ابنه معاوية: إئذن له ما قدر أن يأتي به؟

فقال يزيد: إنّ هؤلاء ورثوا العلم والفصاحة وزقّوا العلم زقاً، ومازالوا به حتى إذن له.

فقال عليه السلام: الحَمْدُلله الّذي لا بدايةَ لَه، والدّائمُ الّذي لا نَفَاذَ لَه، والأوّلُ الّذي لا أوّليةَ لَهُ، والآخرُ الّذي لا آخريةَ لَهُ، وَالباقي بَعدَ فَناء الخَلْق، قَدّرَ اللّيالي والأيام، وقَسّم فيما بَيْنَهم الأقسام، فَتباركَ اللهُ المَلكُ العَلام. إلى أنْ قال: أيُها النّاس أُعطينا ستاً وفُضّلنا بسَبْع، أُعطينا العلمَ والحلمَ والسّماحةَ والفَصَاحَةَ والشّجاعةَ والمَحبّة في قُلوبِ المُؤْمنينَ، وفُضّلنا بأنّ منّا النبيّ وَالصّديق وَالطيّار وَأسدُ الله وأسدُ رَسُولهُ وسبطا هذه الأمة، أيُها النّاس مَنْ عَرفني فَقَد عَرَفَني وَمنْ لمْ يعرفني أنبأته بحَسَبي وَنَسَبي، أيُها النّاس أنا ابنُ مكةُ ومُنى، أنا ابنُ زَمْزَمَ والصّفا، أنا ابنُ مَنْ حَمَلَ الرُكنَ بأطراف الرّدا، أنا ابنُ خَيرَ مَنْ إئتزر وارتدَى وخير مَنْ طافَ وَسَعى، وحجّ ولبّى، أنا ابن مَنْ حُملَ على البراق وَبَلَغَ به جبرئيل سدرةَ المُنتهى، فَكَانَ منْ ربّه كَقابِ قَوسين أوْ أدنى، أنا ابنُ مَن صلّى بملائكة السماء، أنا ابنُ مَن أوحى إليه الخَليلُ ما أوْحى، أنا ابنُ مَنْ ضَرَبَ بَين يديّ رسول الله ببدر

وحُنيــن، ولم يكفر بالله طَرْفَةَ عَيْن، أنا ابنُ صَالح المؤمنين ووارثَ النَّبيِّين، وَيَعســوبَ المُســلمين، وَنــورَ المُجاهديــن وقــاتلُ الناكثين، والقاسطين، والمارقيــن ومفــرّق الأحــزاب، أربطهــم جأشــاً، وأَمْضــاهُمْ عَــزيمةً ذاكَ أبوالسِــبْطَين الحَسنِ والحُسينِ، عليّ بن أبي طالب. أنا ابنُ فاطمةَ الزَهراء، وَســيّدة النّساء، وابنُ خَديجَة الكُبرى. أنا ابنُ المرمّلُ بالدّماء، أنا ابنُ ذبيحَ كربلاء، أنا ابن من بَكى عليهِ الجِنّ في الظَلماء، وَنَاحَتْ الطَيرُ في الهواء.

فلمـا بلـغ الـى هـذا الموضـع ضجّ الـناس بالبكاء وخشي يزيد الفتنة فأمر المؤذن أن يؤذن للصلاة فقال المؤذن: الله أكبر.

قال الإمام: اللهُ أكبَرُ وأجلّ وأعلا وأكرمُ ممّا أخافُ وأحْذَر.

فلما قال المؤذن أشهد أن لا إله إلاّ الله.

قال عليه السلام: نعم أشهد مع كل شاهد أن لا إله غيره ولا ربّ سواه.

فلمّا قال المؤذن: أشهد أن محمداً رسول الله.

قال الإمام للمؤذن: أسألك بحقِّ مُحمّد أنْ تَسكُتْ حتّى أُكلّم هذا.

إلتفـت الـى يزيد، وقال: هذا الرسولُ العَزيز الكريم جدُّك أمْ جَدّي، فإن قُلتْ جَدّك عَلمَ الحاضرون والنّاس كُلّهم إنّك كاذب وإن قلت جدي فَلم قتلــت أبــي ظلمــاً وعدواناً وانتُهبْتَ ماله وسُبيتْ نساءه فويلٌ لَكَ يومَ القيامة إذا كان جدّي خَصمُك.

فلم يجد يزيداً بدّاً من أن يأمر بالإقامة للصلاة، فوقع بين الناس لغط كثير وصلّى بعض، ولـم يصلّ آخرون اعتراضاً على يزيد وفعله وإعلاناً لرفض إمامته للمسلمين.

المشهد الثاني : في الشام في قصر الطاغية بـ (جيرون)

وكان للطاغية قصر بضواحي دمشق بـ (جيرون)، وكان له في هذا القصر منظر يطلّ على دمشق، أو على وديان وربُى دمشق الخضراء... فجلس الطاغية في قصره بجيرون ودعا الى المجلس أعيان دمشق كما دعا ممثل قيصر في الشام وطائفة من أحبار اليهود وقساوسة النصارى، ونعرف ذلك من خلال الاعتراضات التي اشهرت في وجهه في نفس المجلس.

وأراد الطاغية أن يكون هذا الاجتماع اجتماعاً رسمياً حافلاً بالشخصيات السياسية والدينية وأعيان البلد ليحتفل بالانتصار الذي أحرزه على آل البيت عليهم السلام.

وادخل عليه الرؤوس والأسرى والسبايا مغلولين مصفدين، قد غلت أيديهم الى أعناقهم[1].

يزيد يعلن الكفر بالرسالة

قال الزهري: لما جاءت الرؤوس كان يزيد في منظره على جيرون، فلمّا رأى يزيد السبايا والرؤوس على أطراف الرماح، وقد أشرفوا على ثنية جيرون، نعب غراب فقال يزيد:

لما بدت تلك الحمول واشرقت　　　تلك الرؤوس على ربا جيرون

نعب الغراب فقلت قل أو لا تقل　　　فقد اقتضيت من الرسول ديوني

يقول السيد عبدالرزاق المقرّم في كتاب (المقتل): ومن هنا حكم ابن

١- العقد الفريد لابن عبدربّه ٤: ٣٨٢.

الجوزي والقاضي وأبويعلي والتفتازاني والجلال السيوطي بكفره ولعنه"[1].

وقال الآلوسي في روح المعاني (٧/٦) في تفسير قوله تعالى: ﴿فهل عسيتم إن توليتم...﴾[2] بعد ما أورد أبيات يزيد المتقدمة، أنه أراد بقوله (فقد قضيت من الرسول ديوني) انه قتل بما قتله رسول الله ﷺ يوم بدر كجده عتبة وخاله وغيرهما. وهذا كفر صريح، ومثله تمثله بقوله ابن الزبعرى قبل إسلامه:

(ليت أشياخي ببدر)[3].

يزيد ينكث ثغر الحسين بمخصرته

فدعا الطاغية رأس الحسين عليه السلام فوضع في طست من ذهب بين يديه، وكان النساء خلفه، فجعلت سكينة وفاطمة يتطاولان النظر إليه، فلما رأينه صرخن بالبكاء.

فأخذ يزيد ينكت ثغر الحسين عليه السلام بخيزران بيده[4]، ويقول يوم بيوم بدر[5].

١- مقتل الحسين عليه السلام، للسيد المقرّم: ٤١٥، وتذكرة الخواص: ١٤٩.

٢ـ محمد: ٢٢.

٣- المقتل للسيد عبدالرزاق المقرم: ٤٢٢، في مرآة الجنان لليافعي١: ١٣٥، والكامل لابن الأثير٤: ٣٥، مجمع الزوائد للهيثمي٩: ١٩٥، الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي: ٢٠٥.

٤- المقتل للسيد عبدالرزاق المقرّم: ٤٢٣، عن تاريخ الطبري٦: ٢٦٧، وكامل ابن الأثير ٤: ٣٥، وتذكرة الخواص: ١٤٨، والصواعق المحرقة: ١١٩ ومجمع الزوائد لابن حجر الهيثمي٩: ١٩٥، والفصول المهمة لابن الصباغ: ٢٠٥، والخطط المقريزية٢: ٢٨٩، والبداية والنهاية لابن كثير٨: ١٩٢... إلى مصادر أُخرى.

٥- المصدر السابق: ٤٢٣، عن مناقب ابن شهر آشوب٢: ٣٢٦.

وأنشد يقول:

أبى قومنا أن ينصفونا فانصفت قواضب في أيماننا تقطر الدما
نفلق هاماً من رجال أعزّة علينا، وهم كانوا أعق واظلما

اعتراض يحيى بن الحكم

فقال يحيى بن الحكم بن أبي العاص أخو مروان:

لهام بجنب الطف أدنى قرابة من ابن زياد العبد ذي الحسب الوغل
سُميّة أمسى نسلها عدد الحصى وليس لآل المصطفى اليوم من نسل

فدفعه يزيد في صدره، وقال: اسكت لا أم لك[1].

اعتراض الصحابي ابو برزة الأسلمي

وكان الصحابي أبو برزة الأسلمي يومئذ حاضراً مجلس يزيد، فلمّا رأى يزيد يضرب بمخصرته ثغر الحسين عليه السلام، وينشد ما ينشد لم يتمالك نفسه فصاح: «ويحك يا يزيد اتنكت بقضيبك ثغر الحسين بن فاطمة، أشهد لقد رأيت النبي صلى الله عليه وآله يرشف ثناياه، وثنايا أخيه الحسن، ويقول أنتما سيدا شباب أهل الجنة، فقتل الله قاتلكما، ولعنه، واعدّ له جنهم وساءت مصيراً»، فغضب يزيد وأمر باخراجه، فاخرج سحباً[2].

يزيد يعلن كفره مرة أخرى، وينشد أبيات ابن الزبعرى

وجعل يزيد ينشد أبياتاً من شعر ابن الزبعرى قالها قبل أن يسلم يوم أُحد،

١- تاريخ الطبري٦: ٢٦٥، والكامل لابن الأثير٤: ٣٧.

٢- نفس المهموم: ٤٤٣، المقتل للمقرّم: ٤٢٤، حياة الإمام الحسين للقرشي٣: ٣٧٤، الكامل لابن الأثير ٣: ٢٩٨، اللهوف: ١٠٢، الطبري٦: ٢٦٧ باختلاف يسير بين المصادر.

بعد انتكاسة المسلمين، وهو يتمثل في الانتقام من رسول الله ﷺ:

ليت أشياخي ببدر شهدوا   جزع الخزرج من وقع الأسل
لأهلّوا واستهلّوا فرحاً   ثم قالوا يا يزيد لا تشل
قد قتلنا القرم من ساداتهم   وعدلناه ببدر فاعتدل
لست من خندف إن لم انتقم   من بني أحمد ما كان فعل[1]

١- مقتل الحسين عليه السلام للسيد عبدالرزاق المقرّم: ٤٢٨.

قال رحمه الله بعد ما أورد الأبيات في هامش الصفحة: نص سبط ابن الجوزي في تذكرة الخواص: ١٤٨ على ما عدى الثاني منها: وفي مقتل الخوارزمي٢: ٥٨.

وذكر بعدهما الأبيات المذكورة هنا، وفي ص٦٧ ذكر أنها من قصيدة لعبدالله بن الزبعرى قالها يوم أُحد وذكر منها ستة عشر بيتاً، ولم يتوقف الآلوسي في روح المعاني٢٦: ٧٣ في تمثله بها ولأجلها ولما صنعه بآل الرسول حكم أحمد بن حنبل وسعد التفتازاني وجماعة كثيرة بكفره.

ثم قال الآلوسي: ومن يقول أن يزيد لم يعص بذلك ولا يجوز لعنه ينبغي أن ينتظم في سلسلة أنصار يزيد «وأنا أقول» أن الخبيث لم يكن مصدقاً برسالة النبي ﷺ وأن مجموع ما فعله مع أهل حرم الله وأهل حرم نبيّه ﷺ وعترته الطيبين الطاهرين في الحياة وبعد الممات وما صدر منه من المخازي ليس بأضعف دلالة على عدم تصديقه من إلقاء ورقة من المصحف الشريف في قذر، ولا أظن أن أمره كان خافياً على أجلّة المسلمين، ولكن كانوا مغلوبين مقهورين ولم يسعهم إلاّ الصبر ولو سلم أن الخبيث كان مسلماً فهو مسلم جمع من الكبائر ما لا يحيط به نطاق البيان وأنا أذهب إلى جواز لعن مثله على التعيين، والظاهر أنه لم يتب واحتمال توبته أضعف من إيمانه.

ويلحق به ابن زياد وابن سعد وجماعة فلعنة الله عليهم وعلى أنصارهم وأعوانهم وشيعتهم ومن مال إليهم إلى يوم الدين ما دمعت عين على أبي عبدالله الحسين عليه السلام، ويعجبني قول شاعر العصر ذو الفضل الجلي عبد الباقي أفندي العمري الموصلي وقد سئل عن لعن يزيد فقال:

يزيد على لعني عريض جنابه   فأغدو به طول المدى ألعن اللعنا

ومن كان يخشى القال والقيل من التصريح بلعن ذلك الضليل فليقل لعن الله عزّ وجل من رضى بقتل الحسين ومن آذى عترة النبي بغير حق ومن غصبهم حقّهم فإنّه يكون لاعناً له لدخوله

صرخة السيدة زينب عليها السلام في قصر الطاغية

ولما سمعت السيدة زينب بنت علي عليه السلام هذا التحدي السافر من الطاغية قامت متحدية لسلطانه محتقرة لكبريائه وغروره وبطشه فقالت:

«الحمدُلله ربِّ العالمين، وَصَلّى الله عَلى رَسُوله وآله أجمَعين، صدقَ اللهُ سُبحانَهَ حَيْثُ يَقولُ: ﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا السُّوأَى أَن كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِؤُون﴾. أظننت يا يزيدَ حيثُ أخذتَ علينا أقطارَ الأرض، وآفاق السّماء، فأصبَحْنا نُساقُ كما تُساق الأسارى أنّ بنا عَلى الله هَواناً، وَبكَ عليه كَرامَة، وإنّ ذلكَ لعظمْ خَطَرَك عنْده فَشَمخْتَ بأنفكَ، وَنَظَرت في عطفك، جذلان مَسروراً، حينَ رَأيتَ الدُّنيا لَكَ مُستوسَقة، والأمورُ مُتَسقة، وَحينَ صَفَا لَكَ مُلكنا وَسُلطاننا فَمَهْلاً مهلاً، أنسيتْ قَوْل الله تَعالى: ﴿وَلاَ يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

أمِنَ العَدل يا ابْنَ الطُّلقاء، تَخديرُكَ حَرائركَ وإماءَكْ، وَسَوْقَكَ بَناتَ رَسُول الله سَبايا، قَد هَتكْتَ ستورَهُنّ، وأبديتَ وُجُوهَهُنّ، تَحدو بهنّ الأعداء مِنْ بَلَد الى بَلد، وَيَستَشرفُهنّ أهلُ المَناهلْ والمَعاقلْ، وَيَتَصفّحُ وجوهَهنّ القَريبُ والبَعيدُ، والدَنّيّ والشَّريف، لَيسَ مَعَهُنّ من حماتهنّ حَميّ، وَلا مِنْ رِجالهِنّ وَليّ، وَكيفَ يُرتجى مُراقبةَ مَنْ لَفَظَ فُوهُ أكبادُ

تحت العموم دخولاً أولياً في نفس الأمر ولا يخالف أحد في جواز اللعن بهذه الألفاظ ونحوها سوى ابن العربي وموافقيه فإنهم على ظاهر ما نقل عنهم لا يجوّزون لعن من رضي بقتل الحسين وذلك لعمري هو الضلال البعيد الذي يكاد يزيد على ضلال يزيد. انتهى كلامه في روح المعاني ٢٦: ٧٢ ـ ٧٤ في آية ﴿فهل عسيتم إن توليتم﴾ من سورة محمد.

الأزكياء، وَنَبتَ لَحمهُ منْ دماء الشُّهداء، وكَيفَ يستبطأ في بُغضنا أهلَ البيتَ مَنْ نَظَرَ إلينا بالشَنَفَ والشنآن، والأحن والأضغان ثُمَ تقولُ غير مُتَأثمْ ولا مُسْتَعظم:

لأهلوا واستهلوا فرحاً ثم قالوا يا يزيد لا تشل

مُنحَنياً عَلى ثَنايا أبي عَبدالله سَيّد شَباب أهلِ الجَنة تَنكُتها بمخصرتك وَكيفَ لا تَقولُ ذلك، وَقَدْ نكأت القُرحة، وأستأصلت الشأفة، بإراقتكَ دماء ذُرّية مُحمّد صلى الله عليه وآله ونُجوم الأرض منْ آل عَبْد المُطلبْ وَتَهتُف بأشياخكَ، زَعمْت أنّك تُناديهُمْ فَلتردنّ وَشيكاً مَوردَهُمْ وَلَتودّن انّك شَللتَ وَبَكُمتَ وَلَمْ تَكُنْ قُلتَ ما قُلْتَ وَفَعلتَ ما فَعَلْت.

اللهمَ خُذْ لنا بِحَقّنا، وانْتَقِم مِمّنْ ظَلَمَنا، وَأحْلُلْ غَضَبَكَ بِمَنْ سَفَكَ دمَاءَنا، وَقَتَلَ حُماتَنا.

فَوالله ما فَريتَ إلاّ جلدَكَ، وَلا حزَزتَ إلاّ لَحمَك، وَلتردنّ عَلى رَسوُلِ الله صلى الله عليه وآله بما تَحَمّلتَ منْ سَفك دماءَ ذُرّيته وَانتهكتَ منْ حُرمَته في عتْرَته وَلحْمَته، حَيثُ يَجمعُ الله شَملَهُمْ، وَيَلمْ شَعثَهُم، وَيَأخذ بحَقهُم ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذينَ قُتلُوا في سَبيلِ اللَه أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾.

وَحسبُكَ بالله حاكماً، وَبِمُحمّد صلى الله عليه وآله خَصيماً، وَبجبرَئيل ظَهيراً، وَسَيَعْلَم مَنْ سوّل لَكَ وَمكّنكَ منْ رقاب المُسلمين بئس للظّالمينَ بَدلاً، وأيّكم شرّ مَكاناً، وأضعفُ جُنداً.

وَلَئن جَرّت عليّ الدّواهي مُخاطَبَتُك، إنّي لأستصغر قَدَرَكَ، واستعظم تَقريعَكَ، واستَكثُر تَوبيخَكَ، لكنَ العُيونُ عَبْرى، وَالصُدُورُ حرّى.

ألا فَالعَجَب كُلّ العَجَبْ، لقَتلِ حزب الله النُجباء، بحزب الشّيطان الطُلقاء، فهذه الأيدي تَنطُفُ منْ دمائَنا، والأفواهُ تَتَحلّبُ منْ لحُومنا وَتلكَ الجثثُ الطَواهر الزواكي تَنتابُها العواسل[1]، وتُعفرُها أُمهات الفَراعل[2]، ولَئنْ اتَخذْتَنا مَغْنماً، لتجدنا وَشيكاً مَغْرَما، حينَ لا تَجدُ إلاّ ما قَدّمَتْ يَداكَ، وَما رَبُّكَ بِظلاّم لِلعبيد، وَالى الله المُشتكى وعليه المُعوّل، فَكدْ كَيْدَك واسعَ سَعيَك، وَناصبْ جُهدَك، فَوالله لا تَمحو ذكرَنا، وَلا تُميتُ وَحينَا، ولا يَرحضُ عَنكَ عارَها أبدا، وَهلْ رَأيكَ إلاّ فَنَدُ، وأيامَكَ إلاّ عَدْد، وَجَمعَكَ إلاّ بَدَدْ، يومَ يُنادي المنادي ألا لَعنةُ الله على الظالمين.

والحمدُلله ربّ العالمين، الَذي خَتَمَ لأوّلنا بالسعادة وَالمغفرة، وَلآخرنا بالشهادة والرَحْمَة، ونسأل الله أن يُكمِلْ لَهُمْ الثَوابَ، وَيُوجب لَهُمْ المَزيد، وَيُحسنْ عَلَينا الخلافَة، إنّهُ رَحيمٌ وَدودَ وَحسْبنا الله وَنعمَ الوَكيل».

فارتبك يزيد ارتباكاً شديداً، وانزعج وغضب، وقال:

يا صيحة تحمد من صوائح ... ما أهون النوح على النوائح[3]

الخربة

وأمر الطاغية بايواء أهل البيت في خربة لا تقيهم من حرّ ولا برد فأقاموا به حتى تقشرت وجوههم وكانوا مدة اقامتهم في الشام ينوحون

١ـ تنتابها العواسل: تأتي مرة بعد اخرى والعواسل: الذئاب.

٢ـ تعفرها: تمرغها في التراب. والفواعل: أولاد الضباع.

٣ـ راجع مصادر السيرة: اللهوف: ١٦١ ـ ١٦٦، مقتل الخوارزمي ٢: ٦٤، بلاغات النساء: ٢١، مقتل الحسين عليه السلام للمقرم: ٤٢٨ ـ ٤٣٢، نفس الملهوف: ٤٤٤ ـ ٤٤٦، حياة الإمام الحسين للقرشي ٣: ٣٨٠ ـ ٣٨١، وغير ذلك من المصادر.

الحسين‏عليه السلام ويبكون عليه[1] وكانوا يقولون إنّما جعلنا يزيد في هذا البيت ليقع علينا فيقتلنا، فعرف الحرس ما يقولون فكان يقول بعضهم لبعض: أنظروا الى هؤلاء يخافون أن يقع عليهم البيت، وإنّما يخرجون غداً ليقتلون[2].

الاصداء وردود الأفعال

كان لخطاب علي بن الحسين‏عليه السلام في جامع الشام ولخطاب السيدة زينب بنت علي‏عليه السلام في قصر الطاغية وللدور الذي قام به أهل البيت‏عليهم السلام في تعرية يزيد وفضحه أثر كبير في نفوس الناس.

فقد وجدنا أن الجمهور الذي حضر الجمعة في الجامع الأعظم بدمشق ضجّوا بالبكاء عندما ذكر لهم علي بن الحسين‏عليه السلام كيف قتل بنوأُمية أباه الحسين‏عليه السلام في كربلاء.

ووقع من الناس كما يقول المؤرخون (دمدمة وزمزمة عظمية وتفرق الناس وقد صلّى بعضهم وترك الصلاة آخرون).

وعندما تمثل يزيد بأبيات لابن الزبعرى لم يبق أحد في المجلس إلاّ عابه، وانتقصه كما يقول المؤرخون.

وقد أنكر عليه فعله حتى ممثل ملك الروم الذي حضر الاحتفال بانتصار الطاغية على أهل البيت‏عليهم السلام[3]. وبعض رجال الدين من اليهود الذين حضروا الحفل[4].

١- راجع اللهوف: ١٦٨، ونقل السيد المقرّم في المقتل: ٤٣٣ نفس المعنى عن تاريخ الطبري٦: ٢٦٦، والبداية والنهاية٨: ١٩٥.

٢- بصائر الدرجات: ٣٣٨.

٣- راجع مقتل الحسين‏عليه السلام للمقرم: ٤٢٥.

٤- الفتوح لابن أعثم٥: ٢٤٦.

وضجّت الشام بهذه الجريمة فقصد الناس أن يهجموا على يزيد في داره ويقتلوه[١].

بنو أُمية يتوجسون الخطر على سلطانهم

وعرف بنو أُمية أن يزيد إذا لم يكفّ عن غيّه في الاستمرار في هذا الاستعراض الطائش، ويواصل عمله في ظلم أهل البيت عليهم السلام والبطش بهم، فسوف يذهب ذلك بسلطان بني أُمية، ويثور الناس على بني أُمية في كل مكان.

ولذلك فقد قاوم العقلاء منهم طيش يزيد وحاولوا أن يحولوا بين يزيد والاستمرار في هذا الاستعراض القبيح.

وقد رأينا أن يحيى بن الحكم بن أبي العاص عارض يزيد ـ على ملأ من الناس ـ علانية في القصر عندما رأى أن يزيد ـ لعنه الله ـ ينكت بمخصرته على ثغر الحسين عليه السلام ويتمثل بقول الحصين بن الحمام:

أبى قومنا أن يُنصفونا فانصفت قواضب في أيماننا تقطر الدما

فقال يحيى بن الحكم، معرضاً به، ومحاولاً أن يخفف وقع هذا الطيش على الناس.

لهام بجنب الطف أدنى قرابة

من ابن زياد الوغد ذي الحسب الوغل[٢]

ولكن يزيد لم ينتبه الى طيشه وما يحمله له من عواقب سيّئة، ولم يرتدع فدفعه في صدره، واسكته.

١- الشيخ عباس القمي في نفس المهموم: ٤٥٢، نقلاً عن الكامل للبهائي٢: ٢٩٩ ـ ٣٠٢.

٢- الكامل لابن الأثير٤: ٣٥.

وبعثت عاتكة ابنته ليأتوا لها بالرأس الشريف فطيّبته واعادته فأنكر ذلك عليها يزيد، وقال لها: ما هذا؟

فقالت: (وجدت رأس عمّي شعثاً فلممته وطيّبته)[١]. ولكن يزيد لم يكف عن غيّه وغروره.

ودخلت عليه هند فزعة، مهتوكة الحجاب، وهي تقول:

رأس ابن بنت رسول الله ﷺ على باب دارنا[٢].

وكان من أشد الناس انكاراً له ولده معاوية. فأخذ يزيد يثوب الى عقله عندما أكثروا عتابه ولومه، وتكرر عليه انكار الناس، وقد ذكروا أن مروان كان يومئذ بالشام[٣]، فقال ليزيد ـ وهو يرى تردي الحالة الاجتماعية والسياسية وتصاعد انكار المسلمين على بني أُمية ـ (لا يصلح لك توقف أهل بيت الحسين في الشام فأعدّ لهم الجهاز، وابعث بهم الى الحجاز)[٤].

الطاغية يضطر الى التراجع

ويكف الطاغية أخيراً عن غيّه وطيشه، ويبدأ بالتراجع، والتظاهر بالندم، والقاء عبئ هذه الجريمة على ابن مرجانة في الكوفة، والتبري منه والاعتذار لأهل البيت عليهم السلام والإعداد لعودة أهل البيت عليهم السلام الى المدينة بهيئة تختلف عن الهيئة التي أتوا بهم عليهم السلام الى الشام.

فكان يقول، نادماً على ما صدر منه، ملقياً تبعات هذه الجريمة على ابن زياد:

ما كان عليّ لو احتملت الأذى وانزلته ـ أي الحسين ـ معي في داري،

١- حياة الإمام الحسين للشيخ باقر القرشي ٣: ٣٧٦ عن الكواكب الدرية ١: ٥٦.

٢- تاريخ الطبري ٦: ٢٦٧، ومقتل الخوارزمي ٢: ٧٤.

٣- هذه إحدى الروايتين، والرواية الأخرى أنه كان يومئذ بالمدينة.

٤- نفس المهموم: ٤٥٢ عن الكامل للبهائي ٢: ٢٩٩ ـ ٣٠٢.

وكلّمته فيما يريد. لعن الله ابن مرجانة، فقد بغّض بقتله إليّ المسلمين، وزرع لي في قلوبهم العداوة، فبغّضني الى البرّ والفاجر بما استعظم الناس في قتلي حسيناً، مالي ولابن مرجانة لعنه الله وغضب عليه"[1].

وقال لعلي بن الحسين: لعن الله ابن مرجانة، أما والله لو أني صاحب أبيك ما سألني خصلة إلاّ أعطيته إياها ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت، ولكن الله قضى ما رأيت"[2].

الطاغية يأمر بإقامة مجلس العزاء والنياحة على الحسين عليه السلام

وأفرد يزيد لأهل البيت عليهم السلام، داراً عامرة قريبة من قصوره (دار الحجارة) وأذن لهم بإقامة العزاء والنياحة على الحسين عليه السلام، من بعد ما كان ذلك محظوراً عليهم، حتى يقول الإمام علي بن الحسين عليه السلام: «كلّما دمعت عين واحد منّا قرعوا رأسه بالرمح»، فأقمن المأتم على الحسين عليه السلام سبعة أيام، وكان يجتمع عندهنّ كل يوم جماعة كثيرة لا تحصى من النساء[3]. فلم تبق هاشمية، ولا قرشيّة إلاّ لبست السواد حزناً على الحسين عليه السلام.

وروى المفيد في الإرشاد: إنّ الطاغية أمر بالنسوة أن ينزلنّ في دار على حدة معهن أخوهنّ علي بن الحسين عليه السلام، فأفرد له داراً يتصل بدار يزيد فأقاموا أيّاماً"[4].

١- راجع تاريخ الطبري٧: ١٩، وابن الأثير٣: ٣٠٠، ومصادر أُخرى تجد هذا المضمون يتكرر من يزيد.

٢- الإرشاد للمفيد: ٢٣١.

٣- نفس المهموم: ٤٥١ عن كامل البهائي٢: ٢٩٩ ـ ٣٠٢.

٤- الإرشاد للمفيد: ٢٣١.

نياحة الحسين عليه السلام في قصر الطاغية

وامعاناً في الأمر، أمر الطاغية باقامة النياحة على الحسين عليه السلام في قصره، فأدخل أهل البيت عليهم السلام في قصره، فلما دخلت النسوة من آل البيت عليهم السلام دار يزيد لم يبق من آل معاوية ولا آل أبي سفيان أحد إلاّ استقبلهنّ بالبكاء والصراخ والنياحة على الحسين عليه السلام وأقمن المآتم عليه ثلاثة أيام[1].

وروى سبط ابن الجوزي في التذكرة قال:

قال الزهري: لما دخلت نساء الحسين عليه السلام وبناته على نساء يزيد قمن إليهن، وصحن، وبكين، وأقمن المآتم على الحسين عليه السلام.

وقال الشعبي: لما دخل نساء الحسين عليه السلام على نساء يزيد قلن:

واحسيناه، فسمعهنّ يزيد، فقال:

يا صيحة تحمد من صوائح ما أهون الموت على النوائح[2]

ونحن لانشك أن نفوس بني أُمية لم تطب عن أهل البيت قط، وأما الأحقاد التي كان يكنّها يزيد لآل البيت ولم تزل ولم تتغيّر، ولم يأمر يزيد بالتخفيف عن آل البيت عليهم السلام ولم يأمر باخراجهم عن الخربة التي كانت لا تقيهم من حرّ ولا برد حتى تقشر الجلود، كما يقول الشيخ ابن نما في مثير الأحزان[3] ولم يأمر باستقبال أهل البيت عليهم السلام في قصوره واقامة النياحة على الحسين عليه السلام فيها إلاّ بعدما أحسّ أنّ الخطر قد أحدق به وتزلزل عرشه وسلطانه، فرأى أن يرعوي عن غيّه وطيشه، ويلقي ثقل الجريمة على ابن

١- جلاء العيون لسيد شبر ٢: ٢٦٤.

٢- تذكرة الخواص: ١٥٠.

٣- مثير الأحزان لابن نما: ٥٦.

مرجانة، ويتبرأ منها، ويتظاهر بالحزن على الحسين عليه السلام، ويأمر بإعادة أهل البيت عليهم السلام الى المدينة بإكرام، وقد أوقفهنّ قبل أيام على هيئة الأسرى مغلولين مصفدين على مدرج جامع دمشق يوم الجمعة، رجالاً ونساءً.

ولم يؤثر عنه أنه عاقب ابن مرجانة أو عاتبه على فعله، ولم يعزله، ولم يحاسبه بل أكرمه على جريرته.

قال السبط في التذكرة:

«إنّ يزيد استدعى ابن زياد إليه وأعطاه أموالاً كثيرة وتحفاً عظيمة، وقرّب مجلسه، ورفع منزلته، وادخله على نسائه وجعله نديمه، وسكر معه ليله، وقال للمغني غنّ:

أسقني شربة تروي فؤادي ثم مُلْ فاسق مثلها ابن زياد
صاحب السرّ والأمانة عندي ولتسديد مغنمي وجهادي
قاتل الخارجي أعني حسيناً ومبيد الأعداء والحسّاد[1]

١- تذكرة الخواص: ١٦٤.

مَن الغالب في كربلاء

من هو الغالب؟

روى الشيخ الطوسي قُدِّسَ سِرُّه في الأمالي عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: «لما قدم علي بن الحسين عليه السلام وقد قتل الحسين عليه السلام استقبله إبراهيم بن طلحة بن عبدالله، قال: يا علي بن الحسين من غلب؟ وهو يغطّي رأسه، وهو في المحمل. قال: فقال له علي بن الحسين عليه السلام: إذا أردت أن تعلم من غلب ودخل وقت الصلاة، فأذّن وأقم تعرف الغالب»[1].

هذا سؤال كان يردّده المحبّون للحسين عليه السلام بعد مصرعه.

ومن قبل مصرعه كان يشكّون، شكّاً قوياً أن ينتصر الحسين عليه السلام على بني أُمية في هذه المعركة التي يُقدم عليها الحسين، ولذلك كانوا ينصحون الحسين عليه السلام ألاّ يخرج الى العراق، ويحذّرونه من أن يغدر الناس به، كما غدر الناس بأبيه وأخيه عليهما السلام من قبل.

ويرى بعضهم أن بني أُمية كانوا يوحون الى هؤلاء بتحذير الحسين عليه السلام من أن يخرج الى العراق، لئلا يدخلوا في مواجهة مسلّحة مع الحسين عليه السلام، وإن هذا التحذير والنصح الذي تكرّر من العبادلة الثلاثة، ومن عبدالله بن

١- أمالي الطوسي: ٢٩٠ ط. النجف.

هذا التساؤل بقرينة (المحمل) في الرواية أما أن يكون في الكوفة أو في الشام. والسؤال والجواب أقرب الى أجواء الشام من الكوفة، والكل محتمل.

جعفر ومحمدبن الحنفية وأم المؤمنين أم سلمة وغيرهم كان بإيحاء منهم ليجنّبوا بني أمية من مواجهة مسلّحة مع الحسين عليه السلام، وليوفروا لهم الفرصة الكافية للتخلّص منه عليه السلام غيلة وغدراً.

ولا نجد نحن سبيلاً الى اتهام هؤلاء جميعاً بأنهم وقعوا في شراك مؤامرة أموية في تثبيط الإمام عليه السلام عن الخروج الى العراق، ولا نشك في نصح وصدق وعقل جملة منهم ـ على الأقل ـ وقد قال الحسين عليه السلام لعبدالله بن عباس لما نصحه بعدم الخروج الى العراق: «يابن عم إنّي لأعلم إنّك ناصح وعليّ شفيق».

كما أن الذين كانوا يواجهون علي بن الحسين بعد منصرفه من كربلاء بمثل السؤال المقدّم (من الغالب يا علي بن الحسين؟) لا نتهمهم بالتشمت بأهل البيت عليهم السلام، فقد كان الكثير منهم يحبّون الحسين عليه السلام ويودّون لو أنه عليه السلام لم يخرج الى العراق، ولم يُصب بما أصاب، وكانوا يتوجّعون لما أصاب الحسين عليه السلام ولا يتشمتون، كما كانوا قبل ذلك ينصحون الحسين ألا يخرج الى العراق، ولم يستدرجهم بنوأمية في المكر بالحسين عليه السلام.

وكان اختلافهم مع الحسين عليه السلام في تشخيص مفهوم النصر والغلبة والفتح.

وكان هؤلاء يشكّون، أن يكون للحسين عليه السلام النصر والغلبة والفتح في هذه المعركة.

ولم يكن الحسين عليه السلام يشك قط أن النصر والغلبة والفتح له في هذه المعركة ولا يخالجه في ذلك شك.

لا ينال الفتح من تخلّف عن الحسين عليه السلام

روي عن أبي عبدالله الصادق عليه السلام: «انّ الحسين عليه السلام لما توجه الى العراق أمـر بقـرطاس، وكتب: بسم الله الرحمن الرحيم، من الحسين بن علي الى بني هاشم.

أمـا بعـد، فإنّـه من لحق بي استشهد، ومن تخلف عني لم يبلغ الفتح والسلام»[1].

وفي هذه الرسالة يقرر الإمام عليه السلام لبني هاشم أربع حقائق حتمية، لا يشك فيها وهي:

١ ـ إنّ من يخرج معه يستشهد.

٢ ـ وأن من لم يخرج معه لا يبلغ الفتح.

٣ ـ والحقـيقة الثالثة التي نستخرجها من ضمّ الأُولى الى الثانية هي أن من يخرج مع الحسـين عليه السلام يبلغ الفتح.. والمعادلة واضحة بين (الأُولى والثانية) مـن جانـب وبيـن (الثالـثة) من جانب آخر فإنّ مفهوم المخالفة ـ في التفاهم العرفي ـ للجملة الثانية:

ان مـن يخـرج مـع الحسـين عليه السلام ينال الفتح، وقد عرفنا في الجملة الأُولى أن من يخرج مع الحسين عليه السلام ينال الشهادة.

٤ ـ والحقـيقة الـرابعة، وهـي التـي نقصـدها فـي هذا الحديـث أنّ الشهادة تساوي الفتح في المنظور الحسيني، وان الشهادة تؤدي الى الفتح.

ماهو الفتح في المنظور الحضاري

وهذا هو الذي نريد أن نتحدّث عنه هنا.

---

١ ـ الملهوف للسيد ابن طاووس: ٥٧.

ان الخلاف بين الحسين عليه‌السلام وبين أُولئك الذين كانوا ينصحونه بعدم الخروج الى العراق، ومن توجّع لمصرعه عليه‌السلام فيما بعد، وتساءل متوجعاً، لا شامتاً: ماذا حقق الحسين عليه‌السلام بخروجه الى العراق؟ ومن هو الغالب في هذه المعركة الخاسرة؟

أقول: إنّ الخلاف بين الحسين عليه‌السلام وهؤلاء خلاف في الرؤية، وفي مفهوم النصر والغلبة والفتح.

لقد كان هؤلاء يتصوّرون الفتح والنصر والغلبة من منظور عسكري، فلا يشكّون أن الحسين عليه‌السلام يخسر هذه المعركة، فكانوا ينصحون الحسين عليه‌السلام بعدم الخروج.

وكان الحسين عليه‌السلام ينظر الى (الفتح) و (النصر) و (الغلبة) من منظور حضاري تاريخي، فلا يشك أن الله تعالى سوف ينصره في هذه المعركة، ويفتح له ويحقق له الغلبة على بني أُمية، وتنتهي المعركة لصالحه وخسارة معسكر بني أُمية.

الرؤية القرآنية للفتح والهزيمة

لقد انتهت معركة (أُحد) بخسارة المسلمين، ونكسة مُرّة، لازلنا نتجرّع مرارتها حتى اليوم، وعادت قريش الى مكة منتصرة في حساباتها العسكرية، قد استوفت ثأرها من المسلمين عن قتلاها في بدر، وعاد المسلمون الى المدينة، مثخنين بالجراح، وعاد المنافقون ـ من جماعة عبدالله بن أُبي ـ يتشمتون بالمسلمين.

ولكن آيات آل عمران ١٣٩ ـ ١٤٢، التي نزلت يومئذ على المسلمين من بعد انتكاسة أُحد تقدّم للبشرية رؤية جديدة تماماً عن النصر والهزيمة،

تختلف اختلافاً كاملاً عما في أيدي الناس من مفهوم النصر والهزيمة.

ولأتلوا عليكم آيات آل عمران (١٣٩ ـ ١٤٢): ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إن كُنتُم مُؤْمِنينَ * إن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالمِينَ * وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ * أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾.

وإليك هذا الإيضاح

حقائق خمسة في آية آل عمران

يقرر القرآن حقيقة فريدة من نوعها في تاريخ الثقافة عندما يقرر للجماعة المسلمة التي أصابتها النكسة المرة في (أُحد): أنهم الأعلون ﴿وأنتم الأعلون﴾، وبذلك فإنّ هذا (العلوّ) يستلزم أن يكون عدوهم الذي رجع الى مكة منتشياً بالنصر، هم (الساقطون) المهزومون في هذه المعركة، وأن هذه المعركة بكل مرارتها أفرزت: (عُلوّاً) و (سقوطاً). أما العلو فكان من نصيب الجماعة المسلمة، وأما السقوط فكان من نصيب مشركي قريش.

ولكن هذا العلو مشروط بالإيمان ﴿إن كنتم مؤمنين﴾.

العلاقة بين النصر والإيمان

وبين الإيمان والعلوّ علاقة وثيقة، ومعادلة حتمية بمعنى أن الإيمان يساوي العلوّ. وهذه الحقيقة من الحقائق الأساسية في القرآن: ﴿إنّا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا﴾[1].

١- غافر: ٥١.

نعم في الحياة الدنيا وليس في الآخرة فقط.

﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾[١].

ان القرآن يسجل هذه المعادلة بين الإيمان والنصر من دون ترديد.

﴿وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾

العلاقة بين الإيمان والابتلاء

ولكن بشرط أن يجتاز الإيمان محنة الفتنة، ومن دون عبور هذه المحنة والفتنة، والثبات فيها لن يتحقق النصر، بل لم يكن أصحابه من المؤمنين حقاً.

تأمّلوا الآيات الأوائل من سورة العنكبوت: ﴿الم * أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ * وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾[٢].

١ـ إنّ الإيمان لابدّ أن يَعْبُرَ هذه الفتنة والمحنة، ويمتحن فيهما، فإذا صدق صاحبه نصره الله، وإذا تساقط في الفتنة والمحنة فلن ينصره الله.

وان فتنة المحنة مفرزة يفرز فيها الله الصادقين في إيمانهم عن الكاذبين وضعفاء الإيمان: ﴿فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ هذا أوّلاً.

والشرط الثاني: ان ينصروا الله تعالى فإذا نصر المؤمنون الله، وانتصروا لله نصرهم الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنصُرُوا اللهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾[٣].

﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾[٤].

١- الروم: ٤٧.

٢ـ العنكبوت: ١ـ٣.

٣- محمد: ٧.

٤- الحج: ٤٠.

وبهذا الشرط وذاك: الإيمان يساوي النصر دائماً. وهذه من سنن الله تعالى، ولا تتخلّف سنن الله.

وإذا أُصيبوا في موقع أو أكثر بنكسة موجعة، فليس ذلك بمعنى أن النصر قد أخطأهم وأصاب أعداءهم، وإنّما هو من القروح التي تصيبهم وتصيب أعداءهم على نحو سواء، في هذا المعترك، ويبقى الطرف المؤمن هو الفاتح والغالب والمنتصر دائماً، والطرف الآخر هو المهزوم المغلوب.

وهذه الحقيقة الأولى في آية آل عمران ﴿وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ﴾.

٢ ـ ويترتب على الحقيقة أن لا يضعف المسلمون، ولا يحزنوا ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا﴾ والوهن: الضعف.

فلم يتخطاهم النصر والفتح في هذه المعركة، رغم كل ما أصابهم من قروح، فلا يصحَ ولا يجوز أن يهنوا (يضعفوا)، ولا يصح أن يحزنوا لما فاتهم من النصر، فإنّ النصر لم يتخطاهم، ولم يفتهم، وإنّما فاتتهم العافية والغنيمة.

وبين الأمرين فرق، فلا يجوز أن يهنوا ويحزنوا لما فاتهم من العافية والغنيمة، إذا كان الله تعالى قد جعل الفتح والنصر والعلوّ في جانبهم، والسقوط في جانب اعدائهم، وإنّما الوهن والحزن لأعدائهم خاصّة دونهم.

وهذه الحقيقة الثانية في الآية الكريمة ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا﴾.

٣ ـ والحقيقة الثالثة: أن ما أصابهم من القروح والآلام في هذه المعركة لم تخصّهم وحدهم، وإنّما عمّتهم وعمّت أعداءهم بطبيعة الحال، ولم يسلم عنها أعداؤهم، فقد رجعوا الى مكة بالقتل والجرح وخسارة الأموال والأنفس ولا يتوقع أحداً من الحروب والقتال غير الطعون والقروح والجروح والقتل والأسر في كل من المعسكرين.

واختلاف حجم الخسارة في المعسكرين ليس هو الذي يقرّر الطرف المنتصر والطرف المهزوم، وإنّما الذي يقرر النصر والهزيمة هو الإيمان الصادق، والجحود والشرك فما أصابهم وما مسّهم من القروح فقد أصاب القوم أيضاً ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ﴾.

ولكن بفارق واحد بين القرح والقرح، وذلك هو الرجاء من الله، وانعدام الرجاء. فأنتم وهم قد أصابتكم القروح على نحو سواء، ولكنكم ترجون من الله من الفتح والنصر والثبات والتسديد والتوفيق ما لا يرجون، ذلك إنّ (الإيمان) يَشدّ حبلكم بحبل الله، فترجون الله في خضمّ هذه المعركة، و(الكفر والجحود) يفصلهم ويحجبهم عن الله، فلا يرجون من الله شيئاً: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾[1].

وهذه هي الحقيقة الثالثة في هذه الآيات.

٤ ـ والحقيقة الرابعة: إنّ الله تعالى يتداول الأيام بين الناس؛ فتنتقل السلطة والقوة من ناس الى ناس، فتنتكس مرّة فئة، وتنتكس مرة أُخرى فئة أُخرى، وهذا التداول للقوّة والسلطان ليس بمعنى النصر والهزيمة دائماً وبالضرورة. فقد يكون بمعنى النصر والهزيمة، وقد يكون بمعنى الانتكاسة العسكرية في جانب، والفوز العسكري في جانب آخر، والانتكاسة والفوز العسكريان لا يقرران مصير الأُمم في التاريخ من حيث النصر والهزيمة.

وهذا التداول لا يجري في فراغ، وإنّما يجري في وسط ساحة الصراع، ومن خلال القروح والآلام والبأساء والضرّاء، ومن خلال هذا التداول يحقّق

١- النساء: ١٠٤.

الله أمرين خطيرين في التاريخ، لا يكونان لولا التداول، وهما (التمحيص) و(المحق).

المحق والسقوط والهلاك للكافرين والتمحيص للمؤمنين.

والتمحيص في مقابل المحق، فإنّ المحق سقوط وهلاك، والتمحيص تأهيل للبقاء والمقاومة التاريخية وهذا التأهيل من خلال البأساء والضرّاء، وفي ظروف تداول السلطة. ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾.

والمؤمنون يمحصون في ظروف (التداول) من خلال البأساء والضرّاء التي تكتنف التداول عادة، كما يُصهر الذهب في درجات حرارية عالية، فينفصل عما يخلطه من ذرات التراب، ويسيل، فتكون منه السبائك الذهبية والحُليَ وهذا التمحيص على نحوين:

على الخط الأفقي وعلى الخط العمودي.

أما على الخط الأفقي: فإنّ ظروف التداول وما يكتنفه من البأساء والضرّاء تفصل العناصر الضعيفة من المؤمنين والمنافقين عن المؤمنين الصادقين الأقوياء... ومن هؤلاء الصادقين الأقوياء الصامدين يتخذ الله (الشهداء) والقيمين على مسيرة البشرية، ومنهم يتخذ الله الأئمة الصالحين الذين يحكمون الأرض.

وهذا الفرز على الخط الأفقي داخل المجتمع، يتم في ظروف التداول والبأساء والضرّاء، ولولا ظروف التداول لا يتم هذا الفرز.

﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾.

والله تعالى يعلم الذين آمنوا حقاً ويميزهم عمّن دخلوا الإسلام نفاقاً،

ولكن ليفصل هؤلاء عن أولئك وليتم فرز العناصر الصالحة الصادقة عن غيرهم في وسط محنة البأساء والضرّاء.

والنوع الآخر من التمحيص، التمحيص على الخط العمودي داخل النفوس، فإنّ في نفوسنا هذا أيضاً إيمان وريب وقوة وضعف، وعطاء وشُح، وإقبال وإعراض، وحقّ وباطل، وزهد وإقبال على الدنيا، وذكر وغفلة.

وظروف البأساء والضرّاء التي تكتنف التداول كما تفصل الصالحين عن غير الصالحين في المجتمع، كذلك تفصل نقاط الضعف في نفوسنا عن نقاط القوّة وتلغيها، وتطردها عن انفسنا، فتخلص أنفسنا عندئذ في ظروف المحنة من نقاط الضعف التي كانت تثقلنا في ظروف العافية. فيكون المؤمنون عندئذ من (المخلَصين)، بالفتح، أي الخالصين.

وهذا هو التمحيص داخل النفوس، وعلى الخط العمودي، والذي تشير إليه آية آل عمران ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾.

وهذه هي الحقيقة الرابعة.

والحقيقة الخامسة في هذه الآية: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾.

بعد هذا التمحيص والتخليص والتنقيح والتصفية داخل النفوس، تخلص نفوس المؤمنين من نقاط الضعف، ومن الخبث الذي يحجبهم عن الجنّة، فيصلحون لدخول الجنة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ الله...﴾.

هذه هي الحقائق الخمسة في آيات آل عمران.

والذي نعرفه من خلال هذه الجولة في آيات آل عمران أن الرؤية القرآنية للنصر والهزيمة تختلف عن رؤية الناس.

وإنّ قريشاً كانت ترى أنها انتصرت في هذه المعركة، وأنهم قد هزموا المسلمين هزيمة مُرّة.

ولكن القرآن يُقرر لهم يومئذ، طبقاً لهذه الرؤية: إن ما حدث في ساحة (أُحد) لا تزيد على (تداول الأيّام) وما يكتنفه من القروح والآلام والبأساء والضرّاء، وأما النصر والاستعلاء فهو للمؤمنين خاصة.

﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنْتُم مُؤْمِنِينَ﴾

وقد أثبتت الأيام والتاريخ إنّ الرؤية القرآنية للنصر والهزيمة هي الصحيحة، وان ما عادت به قريش الى مكة لم تزد على نشوة وقتية ونصر كاذب.

هذه هي الرؤية القرآنية للنصر والهزيمة، وهي رؤية حضارية وثقافية جديدة على أفكار الناس وتصوراتهم.

وبهذا المقياس الجديد نستطيع أن نفهم التاريخ على غير ما يفهمه الناس.

إنّ الذين حضروا ساحة (أُحد) يومئذ لم يشكو أن المسلمين مهزومون، وأن قريش منتصره.

ولكن الذين يعيشون اليوم، وقد أخذ هذا الدين مشارق الأرض ومغاربها، وارتفعت كلمة التوحيد في كل بقاع الأرض، يعرفون جيداً أن الذين انتصروا في أُحد هم المسلمون والذين انهزموا هم المشركون من قريش.

وبهذه الرؤية القرآنية التاريخية حقق الله تعالى لعبده الحسين بن فاطمة عليه السلام كلّما كان يطلبه في هذه المعركة، ونصره.

والذين كانوا ينظرون الى ساحة كربلاء يوم عاشوراء من خلال اليوم

والساعة لم يشكّوا أن الحسين عليه السلام مغلوب على أمره وبنوأمية غالبون.

ولكـن من كان ينظر الى تلك الساحة يومئذ بهذه الرؤية التاريخية البعيدة المـدى لـم يشـك أن الحسين عليه السلام هو الفاتح في هذه المعركة، وأن بني أُمية قد خسروا هذه المعركة خسارة كاملة.

فلنـتأمل مـاذا حقـق الله تعـالى لعـبده الحسـين عليه السلام مـن النصـر فـي هـذه المعركة.

لقد كان الحسين عليه السلام يطلب في هذه المعركة أمرين اثنين:

١ ـ تحرير إرادة الناس من سلطان بني أُمية، وهذه هي الغاية الحركية.

٢ ـ الغـاء شـرعية الخلافـة الأمويـة، وهـذه هـي الغايـة السياسـية لحـركة الحسـين عليه السلام وقـد حقّـق الله تعـالى لـه الفتح والنصر في هذه وتلك فلنتأمّل، ولنمعن النظر.

١ـ تحرير إرادة النـاس من سلطان بني أُمية

وكانـت هـذه هـي المهمـة الأولى أو النتيجة الأولى لمصرع الحسين عليه السلام وأصحابه.

ورحم الله الشاعر العربي المخبر همام بن غالب الفرزدق يقول:

التقيـت الحسـين عليه السلام وهو مغادر الحجاز الى العراق يوم التروية، فسلّمت عليه وحييّته وقلت له:

بأبي أنت وأُمي يابن رسول الله ما أعجلك عن الحج.

فقال الإمام عليه السلام: **لو لم أعجل لأخذت.**

ثم سألني عن خبر الناس في العراق.

فقلت على الخبير سقطت، قلوب الناس معك، وسيوفهم مع بني أُمية، والقضاء ينزل من السماء، والله يفعل ما يشاء.

فقال الإمام عليه السلام: صدقت ﴿لِلَّهِ الأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ﴾[1].

وقد صدق الفرزدق، فإن السياسة الأموية تمكّنت من تعطيل إرادة الناس، وشلّ عزيمتهم وحركتهم، وتمكنوا من إحداث هذا الانشطار الغريب في نفوس المسلمين، والذي يعبر عنه الفرزدق بهذا التعبير الدقيق (قلوبهم معك، وسيوفهم عليك).

ويريد الفرزدق بكلمة (قلوبهم معك) ولاؤهم وعقيدتهم وحبّهم، وقد كان العراق شيعة لعليّ بن أبي طالب عليه السلام، ووقفوا معه مواقفه كلها ضد خصومه في (الجمل) و (صفين) و (النهروان)، ولم يتمكن معاوية خلال حكمه أن ينفذ الى قلوب الناس في العراق فينزع منها ولاء علي وذريته وحبّهم، ولكنّه تمكن أن ينتزع من أيديهم السيوف التي شهروها في وجهه بصفين وكلمة (السيف) في كلام الفرزدق كلمة رمزية، ترمز الى الموقف السياسي والإرادة السياسية، ويتبعهما الموقف العسكري بطبيعة الحال.

لقد استطاع معاوية بما أُوتي من الدهاء والمكر أن يُرضخ العراق لإرادته، ويسلب الناس عزمهم وإرادتهم، ويعطّل بالكامل موقفهم السياسي تجاه مظالم بني أمية ومفاسدهم، ويجعل منهم ناساً طيّعين، يطاوعون عمال بني أُمية في كل ما يريدون، لا يعترضون ولا يمتنعون، ثم يتبقى لهم حبّهم وبغضهم وإقبالهم وإدبارهم، ولم يكن لمعاوية في ذلك شأن.

وهذا الانشطار الذى أحدثه الحكم الأموي في نفوس الناس كان أخطر

١- الأخبار الطوال، للدينوري: ٢٤٥ .

ما نعرفه من الانشطارات النفسية في التاريخ، يعكسه الفرزدق للإمام عليه السلام في هذه الجملة الوجيزة.

وإذا فقد الناس إرادتهم في وسط الصراع، فسوف يفقدون كل شيء، وقد عرف بنو أُمية هذه الحقيقة وقد أمعنوا في إذلال الناس ومارسوا في الناس صنوفاً من الإذلال لم يسبق له مثيل لا في تاريخ الإسلام، ولا الجاهلية.

حتى أن مسلم بن عقبة الذي عهد إليه يزيد احتلال المدينة عسكرياً آخذاً من التابعين وأبناء الأصحاب عهداً بأنهم خول وعبيد ليزيد في مجزرة الحرّة المعروفة التي تمت على عهد يزيد، والتي استباح فيها يزيد مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاثة أيام وارتكب فيها الجيش الأُموي من الرزايا والمنكرات ما يندر نظيره في التاريخ.

ويدخل الطاغية ابن مرجانة بنات رسول الله صلى الله عليه وآله وأولاده عليهم السلام على هيئة الأسرى الى جامع الكوفة، ويرقى المنبر ويشتم علياً والحسين عليهما السلام فلا يقوم له أحد غير عبدالله بن عفيف رحمه الله.

ويجلس ابن زياد في قصره ويحضر أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله على هيئة الأسرى، ويضع رأس الحسين عليه السلام بين يديه وينكث بقضيبه شفتي الحسين عليه السلام فلا ينكر عليه أحد غير زيد بن أرقم.

ويمارس حكّام بني أُمية ألواناً من الظلم والإفساد والتبذير في بيت المال فلا ينكر عليهم أحد، و لا يخرج عليهم خارج، ولا يشهر أحد سيفاً في وجوههم، ولست اعلم ماذا أصاب الناس خلال هذه الفترة من حكم بني أُمية حتى فقدوا بهذه الصورة إرادتهم ووعيهم، وعادوا أدوات طيّعة بيد عمّال بني أُمية.

المشروع الأُموي في تعطيل الإرادة والموقف السياسي

ونعجب نحن عندما نقرأ تاريخ هذه الفترة فقد دخل بنوأُمية هذه المرحلة بخطة سياسية وثقافية متكاملة تحتاج الى دراسة واسعة، وليس تتوفر لدينا الآن أسباب هذه الدراسة، ولكن ما لا أشك فيه إنّها خطة محكمة ومحبوكة لغرض السيطرة السياسية والفكرية على الناس وتطويع الناس لإراداتهم، واذكر الآن ثلاث نقاط عاجلة من هذه الخطة:

١ ـ التنظير العقائدي للرضوخ للظلم والفساد والكفّ عن الاعتراض على السلطان، لأنّ السلطان يمارس قضاء الله وقدره على الأرض والاعتراض على السلطان اعتراض على قضاء الله وقدره، وقد كان بنوأُمية يدافعون عن القدر، ويلاحقون مَن يخالفهم في الرأي.

٢ ـ التنظير الفقهي لتحريم المعارضة، وإدخال الخروج على الحاكم والمعارضة السياسية تحت طائلة الحرمة والحظر الشرعي.

٣ ـ سياسة الإرهاب والفتك والبطش بالمعارضة.

وليس بوسعنا التفصيل في هذه النقاط الثلاثة، ولكن ما لا يدرك كلّه، لا يترك كلّه، وسوف نوجز الحديث في هذه النقاط الثلاثة:

أ. التنظير العقائدي (الفلسفي)

مارس بنوأُمية ظلماً وإفساداً واسعاً في المجتمع ونجحوا في إرضاخ الناس لقبول الظلم، والكفّ عن المعارضة. وكانوا يدعون الى (القدرية)[1]

١- تستعمل كلمة (القدر) بالمعنيين: حرية الإرادة، والحتمية والجبر، وهنا نقصد بهذه الكلمة المعنى الثاني.

أي: الإيمان بالحتمية التاريخية، وإنّ ما يجري في المجتمع من خير وشر، إنّما يجري بقضاء وقدر حتميين من جانب الله، ولا سبيل الى تغييره.

وقد عُرف بنوأُمية بذلك، وكانوا يفرضون على الناس هذه العقيدة، ويعاقبون من يعارضها ويوجّهون بذلك ممارساتهم السياسية والاقتصادية في الافساد والبذخ.

وكان الحسن البصري يميل الى مخالفة بني أُمية في مسألة القدرية ويرى أن الناس أحرار في تقرير مصيرهم، وليس عليهم قضاء وقدر حتم من جانب الله، وكان يجاهر برأيه فخوّفه بعضهم بالسلطان فكفّ من الإجهار برأيه.

روى ابن سعد في الطبقات عن أيوب، قال: نازلت الحسن في القدر غير مرّة، حتّى خوّفته من السلطان، فقال لا أعود[1].

والسلطان الذي كان يحكم المسلمين في عهد الحسن هو سلطان بني أُمية.

ب. التنظير الفقهي للرضوخ للظالمين والهروب من المسؤولية

شاعت في عصر بني أُمية الفتوى بوجوب الرضوخ للحاكم الظالم والمفسد، وحرمة الخروج ووجوب الانقياد له، مهما بلغ من الظلم والجور والإفساد اللهم إلاّ أن يروا الناس منه (كفراً بواحاً) فيصح عندئذ الخروج عليه، وروي الرواة في ذلك أحاديث عن رسول الله ﷺ. وقد دخلت جملة من هذه الروايات الصحاح.

١- طبقات ابن سعد٧: ١٦٧.

كان عبدالله بن عمر بن الخطاب وعبدالله بن عمرو بن العاص من أكثر أصحاب رسول الله ﷺ اهتماماً بتثبيت هذه الثقافة التي كان يسعى بنواُمية لاشاعتها.

روى البخاري في الصحيح عن أيوب عن نافع، قال لما خلع أهل المدينة يزيد بن معاوية جمع ابن عمر(عبدالله) حشمه وولده، فقال إني سمعت النبي ﷺ يقول: «ينصب لكل غادر لواء يوم القيامة» وإنّا قد بايعنا هذا الرجل بيع الله ورسوله، وإني لا أعلم غدراً أعظم من أن يبايع رجل على بيع الله ورسوله، ثم ينصب له القتال. وإني لا أعلم أحداً خلعه ولا بايع في هذا الأمر إلاّ كانت الفيصل بيني وبينه[1].

وروى مسلم في الصحيح عن زيد بن محمد بن نافع، قال: جاء عبدالله بن عمر الى عبدالله بن مطيع حين كان من أمر الحرّة ما كان زمن يزيد بن معاوية، فقال: اطرحوا لأبي عبدالرحمن وسادة، فقال: إني لم آتك لأجلس، اتيتك لأحدثك حديثاً: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من خلع يداً من طاعة لقى الله عزّ وجل يوم القيامة لا حجة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية»[2].

وليس في هذا الحديث أو ذاك، شيء يقتضي التشكيك بإسناده الى رسول الله ﷺ، وإنما الخلل في اجتهاد عبدالله بن عمر في تطبيق هذا الحديث أو ذاك على من نزع يداً من بيعة يزيد. فإن يزيد رجل فاسق، شارب للخمر قاتل للنفوس المحرّمة، منتهك لحرمات الله، ومثله لا يلي

١- صحيح البخاري ٤: ١٨٨ ط. مصر سنة ١٢٨٦ .

٢- صحيح مسلم ٦: ٢٢ دار الفكر، بيروت.

الخلافة، ولا تصح له بيعة، وحديث رسول الله ﷺ تختص بما إذا أصبحت البيعة لأحد، وصلح للبيعة واستمر فيه الصلاح.

وروى عبدالرحمن بن عبدربّ الكعبة، قال: انتهيت الى عبدالله بن عمرو بن العاص، وهو جالس في ظلّ الكعبة، فسمعته يقول: بينا نحن مع رسول الله ﷺ في سفر إذ نزل منزلاً، فمنّا من يضرب خباءه، ومنّا من هو في جشره[1]، ومنا من يتنصّل، إذ نادى مناديه: الصلاة جامعة، قال فاجتمعنا، قال، فقام رسول الله ﷺ فخطبنا، فقال: إنّه لم يكن نبي قبلي إلا دلّ أُمته على ما يعلمه خيراً لهم، ويُحذّرهم ما يعلمه شراً لهم، وان أُمتكم هذه جعلت عافيتها في أوّلها، وأن آخرها سيصيبهم بلاء شديد، وأُمور تنكرونها، تجيء فتن، يرقق بعضها لبعض، تجيء الفتنة فيقول المؤمن هذه مهلكتي ثم تنكشف فيقول المؤمن هذه، ثم تنكشف. فمن سرّه منكم أن يزحزح عن النار، وأن يدخل الجنّة فلتدركه موتته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأت الى الناس الذي يحب أن يؤتى إليه، ومن بايع إماماً، فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه ما استطاع، فإن جاء آخر ينازعه فاضربوا عنق الآخر.

قال: فادخلت رأسي من بين الناس، فقلت: انشدك بالله أنت سمعت هذا من رسول الله ﷺ؟ قال: فأشار بيده الى أُذنيه، فقال سمعته أُذناي ووعاه قلبي. فقلت: هذا ابن عمك ـ معاوية يعني ـ يأمرنا بأكل أموالنا بيننا بالباطل، وأن نقتل أنفسنا، وقد قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَأْكُلُواْ أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ﴾ قال: فجمع يديه فوضعها على جبهته ثم نكس هنيئة، ثم

١ـ أي في رعيه.

رفع رأسه فقال: أطعه في طاعة الله وأعصه في معصية الله عزّ وجل[1].

وروى أحمد في (المسند) عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم، والقائم خير من الماشي، والماشي خير من الساعي، ومن وجد ملجأً أو معاذاً فليعذ به[2].

وروى أحمد أيضاً في المسند عن أبي بكر عن رسول الله ﷺ: أنها ستكون فتن، فالماشي خير من الساعي إليها، والقاعد فيها خير من القائم فيها، والمضطجع فيها خير من القاعد. ألا فإذا نزلت، فمن كانت له غنم فليلحق بغنمه، ألا ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه، ألا ومن كانت له إبل فليلحق بإبله.

فقال رجل من القوم: يا نبي الله، جعلني الله فداك، أرأيت من ليست له غنم ولا أرض كيف يصنع؟

قال: فليأخذ سيفه ثم ليعمد به الى صخرة ثم ليدق على حدّه بحجره ثم لينجُ ان استطاع[3].

هذه هي ثقافة (الرضوخ) و (الهروب)، شاعت في عصر بني أُمية، وكان لخلفاء بني أُمية وعمّالهم دور كبير في اشاعتها والترويج لها، لدعوة الناس الى الرضوخ والطاعة والكف عن الاعتراض، أو الهروب من ساحة المعارضة على أقل التقادير لتثبيت أركان حكمهم وسلطانهم في المنطقة الإسلامية.

١- مسند أحمد بن حنبل٢: ١٦١.

٢- مسند أحمد٢: ٢٨٢.

٣- مسند أحمد٥: ٤٨٥.

وقد دخلت هذه الروايات فى المدونات الحديثية حتى الصحاح منها، وادخلت هذه الفتاوى في المدونات الفقهية حتى أصبحت جزءاً من الثقافة الحديثية والفقهية الإسلامية في العلاقة بين الحاكم الظالم والفاسق والرعايا مع الأسف، ويفتي الفقهاء الى اليوم بحرمة الخروج على الحاكم الظالم، الفاسق، وإن أعلن الفسق والظلم وحرمة مخالفته في غير الحرام، وحرمة مقاطعته، والتشويش عليه، وحرمة إثارة الناس عليه وازعاجه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (المعلن)، ونحن لا نشك بأن هذه الروايات انتحلت في الغالب على رسول الله ﷺ وأنها تعارض معارضة واضحة محكمات كتاب الله وروح تعاليم هذا الدين في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ولا يمكن أن يدعو رسول الله ﷺ المسلمين الى الرضوخ للحاكم الظالم الذي ينتهك حرمات الله، ولا يمكن أن يدعو المسلمين الى الهروب عن الفتن، والذي يتطابق من حديث رسول الله ﷺ مع القرآن، هو بعكس ذلك تماماً، وهو عدم الركون الى الظالمين ومقاومته ومواجهته وإزالته عن مواقع القوة، والتصدي للفتنة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا هو الذي يلائم القرآن وروح هذا الدين.

ونحن لا نشك أن بني أُمية هم الذين انتحلوا هذه الروايات وأوّلوها ووظّفوها لتثبيت أركان حكمهم وسلطانهم وأنهم وظّفوا بعض العلماء للتنظير لهذه الثقافة واشاعتها مثل عبدالله بن عمر بن الخطاب وعبدالله بن عمرو بن العاص وأمثالهم.

إلاّ أن خروج الحسين عليه السلام على يزيد وهتافاته وصرخاته للمسلمين

ومصرعه ومصرع الثلة الطاهرة من أصحابه كان له التأثير الكبير في إلغاء واحباط هذه الثقافة.

خطب الحسين عليه السلام أصحاب الحرّ بن يزيد في منزل البيضة، فقال عليه السلام: أيها الناس أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قال: من رأى سلطاناً جائراً مستحلاً لحرام الله، ناكثاً لعهد الله، مخالفاً لسنة رسول الله يعمل في عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يُغَيِّر عليه بفعل ولا قول كان حقّاً على الله أن يدخله مدخله»[1].

وخطب الناس في كربلاء، فقال عليه السلام:

«ألا ترون الى الحقّ لا يعمل به، والى الباطل لا يتناهى عنه، ليرغب المؤمن في لقاء الله محقاً، فإني لا أرى الموت إلاّ سعادة والحياة مع الظالمين إلاّ برماً»[2].

كان لصرخات الحسين وهتافاته في الحجاز والعراق ومصرعه في العراق الأثر الكبير في إلغاء ثقافة الرضوخ والهروب الأموية.

ومن يطلع على الثقافة الفقهية والحركية في تاريخ الإسلام بعد موقعة الطف يعرف جيداً؛ أنّ الحسين عليه السلام تمكن من إلغاء هذه الثقافة، وكلّما تجدد من بعد مصرع الحسين عليه السلام من الحركات، ومنها وقعة (الحرّة) في مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله يحمل آثار هذه الثقافة الحركية التي أحياها الحسين عليه السلام بمصرعه وهتافاته في المسلمين[3].

١- تاريخ الطبري ٤: ٣٠٠.

٢- تاريخ الطبري ٤: ٣٠١.

٣ـ راجع كتابنا حوار في التسامح والعنف: ١٠١ـ١١٢ ط. بيروت، لتلمس بوضوح تأثير هتافات الحسين عليه السلام ومصرعه ومصرع أصحابه في الغاء هذه الثقافة.

ورغـم أن هـذه الـنظرية الفقهـية لا تـزال قائمة في الفقه الرسمي، ولكنها فقدت قيمتها العلمية والدينية بعد ثورة الحسين عليه السلام وخروجه على يزيد ولم يعـد لفـتاوى وكلمـات القاضـي أبوبكـر بـن العربـي المالكـي[1] وأمـثاله مثل محمـد عـزّت دروزة المعاصـر وغـيرهم دور وقـيمة فـي الفقـه السياسـي في تاريخ الإسلام.

فقـد انهـى الحسـين عليه السلام هـذه الأُطروحة الفقهية الأُموية وألغاها بمصرعه ودماء أهل بيته وأصحابه[2].

ولـولا ثـورة الحسـين عليه السلام لاسـتقرت هذه الثقافة الفقهية الأُموية في حياة المسـلمين السياسـية وقـرّت عـيون الظالمين بالظلم والإفساد، وأفسد الحكّام

١- يقول القاضي أبي بكر بن العربي في كتابه (العواصم) ص٢٣٢: قال رسول الله صلى الله عليه وآله ستكون هنات، فمـن أراد أن يفـرق أمـر هـذه الأمـة، وهي جميع فاضربوه بالسيف كائناً من كان، فما خرج عليه أحد إلاّ بتأويل ولا قاتلوه إلاّ بما سمعوه من جدّه صلى الله عليه وآله .

وخطّأ ابن خلدون في المقدمة: (ص٢٥٤ ـ ٢٥٥) القاضي أبابكر ابن العربي المالكي في رأيه في الحسـين عليه السلام إذ قال: إنّ الحسين قتل بسيف جده غفلة عن اشتراط الإمام العادل.

وقـال الشـوكاني: لقد أفرط بعض أهل العلم فحكموا بأنّ الحسـين السـبط(رضي الله عنه) باغ على الخمـير السـكير الهاتك لحرمة الشريعة المطهرة يزيد بن معاوية لعنهم الله فيا للعجب من مقالات يقشعر من سماعها كل جلمود، (نيل الأوطار٧: ١٤٧) راجع مقتل الحسين عليه السلام للمقرم: ٨ ـ ١٠ .

ومـن المعاصـرين، يقول محمد عزت دروزه في كتابه (تاريخ الجنس العربي)٨: ٣٨٢ (بنقل حياة الإمام الحسين عليه السلام للقرشي:٤٠٥ ـ ٤٠٦):

فقـد كـان (عمّـال بنـي أُمية) يـريدون أن يعافيهم الله مـن الابـتلاء بقتاله فضلاً عن قتله ويبذلون جهدهـم فـي إقـناعه بالنزول على حكم ابن زياد ومبايعة يزيد، فإذا كان الحسـين أبى أن يستسلم ليدخل فيما دخـل فـيه المسـلمون وقـاوم بـالقوة فمقاومـته وقـتاله من الوجهة الشرعية والوجهة السياسية سائغ.

٢- يقـول ابـن مفلـح الحنبلـي: جوّز ابن عقيل الخروج على الإمام الغير العادل بدليل خروج الحسـين على يزيد لإقامة الحق (مقتل الحسين عليه السلام للمقرم: ٩).

المفسدون أحكام هذا الدين وشرائعه ومن قيم هذه الأمة وأخلاقها.

فكانت ثورة الحسين عليه السلام رحمة لهذه الأمة، وضعت أساساً فقهياً قوياً للخروج على الظالم ومقاومته بالسيف إن لم يتراجع عن الظلم والإفساد، ولم يشك فقهاء المسلمون منذ ذلك اليوم في تفسيق يزيد وتكفيره والإشادة بذكر الحسين عليه السلام وجهاده ومقاومته، ورغم انّ هذه الثقافة لا تزال قائمة في كتب الحديث والفقه، لكنها ملغاة في الواقع السياسي والحركي للتاريخ الإسلامي.

ج ـ سياسة الإرهاب والقمع

واتخذ بني أُمية سياسة الإرهاب والقمع (الى جانب التطميع والاغراء بالمال) لإنهاء المعارضة السياسية، وإرغام الناس على قبول بني أُمية والسكوت عن مظالمهم ومفاسدهم والركون إليهم، والوقوف الى جانبهم في كل مظلمة ومفسدة.

وقد شاعت هذه السياسة وعرفت من بني أُمية وبالغ بنوأُمية في تصفية شيعة علي عليه السلام في العراق، وبشكل خاص في الكوفة، وتتبعوهم، وحاربوهم في أرزاقهم واستأصلوهم، وأخافوهم وشردوهم وسلبوهم الأمن في دورهم.

يروي ابن أبي الحديد في شرح النهج كلاماً لأبي جعفر الباقر عليه السلام عمّا لاقاه شيعة علي أيام بني أُمية من الظلم والإضطهاد والقمع والإرهاب، يقول عليه السلام: «ثم لم نزل ـ أهل البيت ـ نستذل ونستضام، ونقصى، ونمتهن ونحرم، ونقتل، ولا نأمن على دمائنا ودماء أوليائنا، ووجد الكاذبون الجاحدون لكذبهم وجحودهم موضعاً يتقرّبون به الى أوليائهم وقضاة السوء وعمّال السوء في كل بلدة، فحدثوهم بالأحاديث الموضوعة المكذوبة، ورووا عنّا ما لم نقله وما لم نفعله، ليبغّضونا الى الناس، وكان

أعظم ذلك وكبره في زمن معاوية بعد موت الحسن عليه السلام، فقتلت شيعتنا بكل بلدة، وقطعت الأيدي والأرجل على الظنّة، وكل من يذكر بحبّنا والانقطاع إلينا سجن أو نهب ماله أو هدمت داره. ثم لم يزل البلاء يشتد ويزداد الى زمن عبيدالله بن زياد، قاتل الحسين عليه السلام، ثم جاء الحجاج فقتلهم كل قتلة، وأخذهم بكل ظنّة وتهمة. حتى أن الرجل يقال له زنديق أو كافر أحبّ إليه من أن يقال له شيعة علي عليه السلام»[1].

ولعلّ كتاب الغارات الذي وضعه إبراهيم بن محمد الثقفي الكوفي المتوفّى سنة (٢٨٣ هـ) يلقي بعض الضوء على غارات الإبادة والاستئصال التي كان يشنها معاوية على أطراف الحجاز واليمن والعراق لإبادة واستئصال شيعة الإمام ومحبّيه.

روى إبراهيم بن محمد بن سعيد الثقفي في كتاب (الغارات) عن سفيان بن عوف الغامدي قال: دعاني معاوية فقال: إنّي باعثك في جيش كثيف ذي أداة وجلادة، فالزم لي جانب الفرات حتى تمر بهيت فاقطعها، فإن وجدت بها جُنداً فأغر عليهم وإلاّ فامضِ حتى تغير على الأنبار فإن لم تجد بها جُنداً فامض حتى توغل في المدائن... إنّ هذه الغارات يا سفيان على أهل العراق ترعب القلوب، وتفرح كل من له فينا هوى منهم وتدعو إلينا كل من خاف الدوائر، فاقتل من لقيته ممن ليس هو على مثل رأيك وأخرب كلّما مررت به من القرى وأخرب الأموال فإن خرب الأموال شبيه بالقتل، وهو أوجع للقلب[2].

١- شرح النهج لابن أبي الحديد١١: ٤٤ ورواه المجلسي في البحار٤٤: ٦٨.

٢- شرح النهج بتحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم٢: ٨٥ ـ ٨٦ والغارات لإبراهيم بن محمد الثقفي: ٤٦٤ ـ ٤٦٧ ط. طهران بتحقيق السيد جلال الدين المحدث.

ونشير هنا الى بعض المجازر التي حصلت على يد خلفاء بني أُمية وعمّالهم في شيعة أهل البيت في الفترة الرهيبة من تاريخ الإسلام.

مجازر بُسر بن أرطأة

بعث معاوية بسر بن أرطأة ـ وكان قاسي القلب سفّاكاً لا رأفة له ولا رحمة، كما يقول الثقفي في الغارات ـ الى اليمن وقال له: (أُقتل شيعة عليّ حيث كانوا)[1] فأقبل من الشام حتى قدم المدينة (فخطب الناس وشتمهم وتهدّدهم يومئذ، وتوعّدهم وقال: شاهت الوجوه)[2].

(... ثم شتم الأنصار، فقال: يا معاشر اليهود وأبناء العبيد بني زريق وبني النجّار وبني سالم وبني عبدالأشهل، أما والله لأوقعن بكم وقعة تشفي غليل صدور المؤمنين وآل عثمان. أما والله لأدعنّكم أحاديث كالأمم السالفة[3] ونزل بُسر فأحرق دار زرارة بن جرول ودار رفاعة بن رافع ودار أبي أيوب الأنصاري[4]. وعن الوليد بن هشام قال: صعد (بُسر) منبر النبي ﷺ فقال: يا أهل المدينة اخضبتم لحاكُم وقتلتم عثمان مخضوباً والله لا أدع في المسجد مخضوباً إلاّ قتلته، ثم قال لأصحابه خذوا بأبواب المسجد وهو يريد أن يستعرضهم، فقام إليه عبدالله بن الزبير وأبوقيس رجل من بني عامر بن لؤي فطلبا إليه حتى كفّ عنهم[5]، وتوجّه بُسر الى اليمن وقتل في مسيره

1- الغارات للثقفي: 598 ط 2. طهران سنة (1395 هـ).

2- الغارات: 602.

3- الغارات: 603.

4- الغارات: 603 ـ 604.

5- الغارات: 607 ـ 608.

ذلك جماعة من شيعة عليّ باليمن[١].

وقتل ابني عبيدالله بن عباس (عامل أميرالمؤمنين على اليمن) وهما صغيران بين يدي أُمهما[٢] فولهت أُمهما وهامت على وجهها وكانت تأتي الموسم وتنشدهما فتقول:

يا من أحسّ بابنيّ اللذين هما كالدرتين تشظّى عنهما الصّدف
يا من أحسّ بابنيّ اللذين هما مخ العظام فمخي اليوم مزدهف
يا من أحسّ بابنيّ اللذين هما قلبي وسمعي فقلبي اليوم مختطف
نُبئْت بُسراً وما صدّقت مازعموا من افكهم ومن الإثم الذي اقترفوا
انحى على ودجي ابنيّ مرهفة مشحوذة وكذاك الإثم يقترف
من دلّ والهة حرّى مسلبة على صبيين ضلاّ إذ مضى السلف

ولما قتل بُسر الغلامين بين يدي أُمهما خرج[٣] نسوة من بني كنانة فقالت امرأة منهن: هذه الرجال تقتلها فعلام تقتل الولدان؟ والله ما كانوا يقتلون في الجاهلية ولا في الإسلام. والله إن سلطاناً لا يشتدّ إلاّ بقتل الرضّع الضعيف ورفع الرحمة وقطع الأرحام لسلطان سوء، فقال بُسر: والله لهممت أن أضع فيكنّ السيف. قالت: والله إنّه لأحبّ إليّ[٤].

يقول ابن الأثير: فلمّا سمع أميرالمؤمنين عليّ عليه السلام بقتلهما جزع جزعاً شديداً

١- الكامل ٣: ٣٨٤.

٢- الاستيعاب بهامش الإصابة في تمييز الصحابة ١: ١٥٥، ط ١. مصر سنة (١٣٢٨ هـ).

٣- راجع الغارات: ٦١٣، والاستيعاب بترجمة (بُسر) بهامش الإصابة ١: ١٥٦، والكامل ٣: ٣٨٣ ـ ٣٨٤ وبحار الأنوار الطبعة الحجرية ١٠: ١٣٠.

٤- الغارات: ٦١٥ ـ ٦١٦، الكامل ٣: ٣٨٤ باختلاف يسير.

ودعا على بُسر فقال: اللهمّ اسلبه دينه وعقله، فأصابه ذلك وفقد عقله[١].

وقال ابن عبدالبر في الاستيعاب: وأغار بُسر على همدان وسبى نساءهم فكنّ أوّل مسلمات سُبين في الإسلام[٢] وأقمن في السوق[٣].

وكان أبوذر رضي الله عنه يعوذ بالله من أن يدرك زماناً تُسبى فيه النساء المسلمات ويكشف عن سيقانهنّ، فأيهن كانت أعظم ساقاً اشتُريت[٤].

مجازر زياد بن أبيه

من دهاة العرب والمعروفين بالقسوة وسفك الدماء استعمله معاوية على البصرة ثم أضاف إليه إمارة الكوفة بعد موت المغيرة بن شعبة فمكّن لمعاوية في العراقين البصرة والكوفة وأحكم قواعد حكم بني أُمية على العراقين بالإرهاب والدم. فكتب الى معاوية: أنه قد ضبط العراقين البصرة والكوفة بيمينه، وشماله فارغة، فأضاف معاوية الى إمارته إمارة الحجاز.

ولما عرف أهل المدينة بأن معاوية قد ولّى زياداً إمارة الحجاز، اجتمع الصغير والكبير بمسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وضجّوا الى الله، ولاذوا بقبر النبي صلى الله عليه وآله ثلاثة أيام لعلمهم بما هو عليه من الظلم والعنف[٥]، وقد كان حاقداً على عليّ عليه السلام وشيعته أبلغ ما يكون الحقد وقاسياً عليهم يتّبعهم في كل مكان ويسلّط عليهم جلاوزته وعمّاله.

١- الكامل لابن الأثير ٣: ٣٨٥.

٢- الاستيعاب بهامش الإصابة ١: ١٥٧.

٣- الاستيعاب بهامش الإصابة ١: ١٥٨.

٤- الاستيعاب بهامش الإصابة ١: ١٥٧.

٥- مروج الذهب ٣: ٢٦ فهارس يوسف أسعد داغر.

يقول ابن أعثم المتوفى سنة (٣١٤ هـ) في كتاب الفتوح: (وجعل زياد يتتبّع شيعة علي بن أبي طالب فيقتلهم تحت كل حجر ومدر، حتى قتل منهم خلقاً كثيراً، وجعل يقطع أيديهم وأرجلهم ويسمل أعينهم وجعل أيضاً يغري بهم معاوية، فقتل منهم معاوية جماعة، وفيمن قتل حجر بن عدي الكندي وأصحابه، وبلغ ذلك الحسن بن علي فقال: اللهمّ خذ لنا ولشيعتنا من زياد ابن أبيه، وأرنا فيه نكالاً عاجلاً)[١].

ويقول ابن أبي الحديد المتوفى سنة (٦٥٦ هـ): فكان (زياد) يتتبع الشيعة وهو بهم عارف لأنه كان منهم أيام علي عليه السلام[٢] فقتلهم تحت كل حجر ومدر وأخافهم وقطع الأيدي والأرجل وسمل العيون وصلبهم على جذوع النخل وطردهم وشرّدهم عن العراق فلم يبق معروف منهم[٣].

وهذه الصورة التي يرسمها ابن أعثم من مؤرخي القرن الثالث الهجري وابن أبي الحديد من مؤرخي القرن السابع تكفي لتعطينا صورة واضحة عن الفترة الدموية التي حكم فيها زياد بن أبيه على الحجاز والكوفة والبصرة وما والاهما وبضمنها الريّ وخراسان.

ويروي الطبري قصة من قصص الإرهاب العجيبة في حكم زياد تكشف لنا أبعاد المجازر الرهيبة في أيام زياد وخلاصة هذه القصة: أنّ زياداً لما مات المغيرة وأُنيطت به ولاية الكوفة جاء الى الكوفة وصعد المنبر فخطب

١- كتاب الفتوح لابن الأعثم ٤: ٢٠٣ ط. حيدر آباد الهند، دائرة المعارف العثمانية سنة (١٣٨١هـ).

٢- كان زياد والياً من قبل الإمام على فارس فكتب إليه معاوية يتهدده ويغريه فلمّا قرأ زياد كتابه قام في الناس وقال: العجب كل العجب من ابن آكلة الأكباد ـ أي معاوية ـ ورأس النفاق يخوّفني بقصده إيّاي وبيني وبينه ابنا عم رسول الله في المهاجرين والأنصار- الكامل لابن الأثير ٣: ٤٤٤.

٣- شرح النهج لابن أبي الحديد ١١: ٤٤.

في الناس فَحُصِبَ وهو على المنبر، يقول الطبري: فجلس حتى أمسكوا ثم دعا قوماً من خاصته وأمرهم فأخذوا أبواب المسجد ثم قال: ليأخذ كل رجل منكم جليسه ولا يقولنّ لا أدري مَن جليسي.

ثم أمر بكرسي فوضع له على باب المسجد فدعاهم أربعة أربعة يحلفون بالله ما منّا من حصبك فمن حلف خلاّه ومن لم يحلف حبسه وعزله حتى صار الى ثلثين ويقال: بل كانوا ثمانين فقطع أيديهم على المكان[١].

ويقول ابن الأثير: (وكان زياد أوّل من شدّد أمر السلطان، وأكّد الملك لمعاوية وأخذ بالظِنة وعاقب على الشبهة وخافه الناس خوفاً شديداً)[٢].

وروى اليعقوبي المتوفى سنة (٢٩٢ هـ) والمسعودي المتوفى سنة (٣٤٦هـ): أن زياداً جمع جمعاً من شيعة الإمام عليه السلام في أُخريات حياته ليعرض عليهم البراءة من الإمام ولعنه فإن لم يتبرأوا ولم يلعنوا قتلهم فعجّل الله تعالى بهلاك الطاغية قبل أن يصل الى غايته[٣].

وأما ابن أبي الحديد المتوفى سنة (٦٥٦ هـ) فقد روى الرواية بالشكل التالي: وأراد زياد أن يعرض أهل الكوفة أجمعين على البراءة من عليّ عليه السلام ولعنه؛ وأن يقتل كل من امتنع من ذلك ويخرّب منزله فضربه الله ذلك اليوم بالطاعون فمات ـ لا رحمه الله ـ بعد ثلاثة أيام[٤].

١- تاريخ الطبري حوادث سنة ٥٠ الجزء السابع ١١: ٨٨ طبعة لندن.

٢- الكامل لابن الأثير ٣: ٤٥٠.

٣- اليعقوبي ٢: ٢٢٢ ـ ٢٢٣، المسعودي ٣: ٢٦.

٤- شرح النهج ٤: ٥٨.

دور الملحمة الحسينية في احباط المشروع الأموي

لقد كان لمصرع الحسين عليه السلام وأصحابه أثر الزلزال في نفوس المسلمين يومئذ، فقد هزّهم هذا الحدث المفجع هزّة عنيفة، وأثارت في نفوسهم الحمية والشجاعة والغيرة، وأعادت إليهم الشارد من أنفسهم وإرادتهم التي سلبها عنهم بنوأمية، واهتزّ الضمير الإسلامي، الذي عطّله بنوأمية هزّة قوية، وتهاوت أمامهم حواجز الخوف والإرهاب الذي أقامها بنوأمية واندفعوا للثأر لدماء أهل البيت والإنتقام من القتلة والتكفير عن تخاذلهم عن نصرة ابن بنت رسول الله، فكثر الخارجون على بني أُمية، وتعددت الثورات، وامتدت شعارات: (يالثارات الحسين) في كثير من هذه الواجهات، وكثر التوابون النادمون على تخلّفهم عن نصرة الحسين وخذلانهم له، عند خروجه على يزيد، وسقطت هيبة بني أُمية في نفوس الناس، ولم تعد سياسة القمع والإرهاب التي كان يستخدمها بنوأمية لتطويع الناس كافية في إنهاء المعارضة السياسية، ولم تزل تتسع رقعة هذه المعارضة في التاريخ السياسي الإسلامي منذ ذلك الحين.

٢. الغاء الشرعية السياسية لخلافة بني أُمية

وهذه نتيجة سياسية لثورة الحسين عليه السلام فى مقابل النقطة الأُولى (تحرير إرادة الأمة) التي كانت نتيجة حركية.. وكلمات الإمام عليه السلام من المدينة الى كربلاء الى ساحة الطف يوم عاشوراء تؤكد إنّ الإمام عليه السلام كان يطلب هذه الغاية، ويعمل لإلغاء الشرعية السياسية لبني أُمية في خلافة رسول الله صلى الله عليه وآله.

وكان الإمام عليه السلام يشعر أن خطر بني أُمية على الإسلام أكبر من خطرهم وإساءتهم الى المسلمين، إذا كان الناس يعتقدون أنّهم يمثلون الموقع

الشرعي السياسي لخلافة رسول الله ﷺ. وحينئذ فمهما يمارس بنواُمية في الأمة من إفساد وإخلال يتم بأسم الإسلام، لأنهم يمثلون الموقع الشرعي للخلافة.. ـ وبذلك يفقد الإسلام استقامة الوحي ونقاوته ـ وليس فقط يستعيد بنواُمية مواقعهم التي كانوا يتمتعون بها في الجاهلية في ظل الإسلام، وإنّما يردون الإسلام الى القيم والأحكام والأعراف والاحتكار والتصورات الجاهلية، وهي ردّة كاملة في القيم والمواقع.

وقد كان الإمام عليه السلام يقول:

«وعلى الإسلام السلام، إذ قد بليت الأمة براع مثل يزيد، ولقد سمعت جدّي رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: الخلافة محرّمة على آل أبي سفيان»[1].

وفي هذه الكلمة يعلن الإمام عن أمرين هما روح هذه الثورة والتضحية المفجعة التي قام بها الحسين عليه السلام وهما:

١ ـ إنّ الإسلام سوف لا يسلم إذا حكمه بنواُمية، وسوف لا يبقون على شيء من الإسلام من قيمه وأحكامه وأعرافه وأفكاره. وسوف تحلّ الأعراف والأفكار والأحكام الجاهلية في الإسلام، وتكتسب صفة الإسلام.

٢ ـ إلغاء شرعية خلافة بني اُمية لأن هذه الخلافة سوف تؤدي الى الإحلال والتحريف في روح هذا الدين وأحكامه وقيمه، ولذلك أعلن الحسين عليه السلام انّ هذه الخلافة غير شرعية وإن رسول الله ﷺ قال: **«الخلافة محرّمة على آل أبي سفيان»**.

ولم يكن هذا الانذار الذي أطلقه الحسين عليه السلام يومئذ، هاجساً وإنّما كان

١- بحار الأنوار ٤٤: ٣٢٦، العوالم ١٧: ١٧٥.

الإمام يلمس هذا الواقع في سني حكم معاوية، ويعرف أن يزيد سوف يواصل منهج معاوية بشكل أبشع وأقبح، وأكثر تجافياً لروح الإسلام ومنهجه.

وقد كان منهج الإمام عليه السلام واضحاً وصريحاً منذ اليوم الأوّل في رفض شرعية البيعة ليزيد وإعلان فسقه وإنحرافه عن الإسلام، ولقد قالها صراحة في الاجتماع الأوّل الذي دُعي إليه من قبل أميرالمدينة الوليد بن عتبة:

«أيها الأمير إنّا أهل بيت النبوة، ومعدن الرسالة ومختلف الملائكة ومحلّ الرحمة، بنا فتح الله، وبنا ختم، ويزيد رجل فاسق شارب خمر، قاتل النفس المحرّمة معلن للفسق، ومثلي لا يبايع مثله»[1].

وقد حقّق الله تعالى للحسين عليه السلام ما كان يطلب من إلغاء شرعية الخلافة الأُموية، ليسلم الإسلام من التحريف والتشويه خلال حكم بني أُمية.

ومنذ ذلك الحين أصبحت الخلافة سلطة زمنية كأيّ سلطة أُخرى لا تحمل قيمة إسلامية، ويتعامل معها الناس، كما يتعاملون مع أيّ موقع آخر من مواقع القوة والسلطة غير الشرعية.

وقد كانت الخلافة تتمتع قبل هذا الوقت، وقبل أن يتولّى معاوية الحكم بموقع شرعي، وكان الناس يأخذون دينهم ودنياهم من هذا الموقع، رغم كل المسائل التي حدثت أيام خلافة الخليفة الثالث.

ومن هذا التاريخ نجد ظهور خط آخر في الشارع الإسلامي (السُنّي) يضع فيه الناس ثقتهم ويستودعونهم دينهم، وهو خط الفقهاء، وكان الناس يعرفون مواقع العلماء، ويضعون ثقتهم فيهم على قدر ابتعادهم من جهاز الخلافة.

١- الفتوح لابن الأعثم ٥: ١٤، وبحار الأنوار ٤٤: ٣٢٥.

والذي يقرأ التاريخ الإسلامي يعرف جيداً كيف كان الفقهاء الصالحون يتهرّبون عن ارتياد بلاط الخليفة واستلام المسؤوليات السياسية، وحتى القضائية، من قبل الخليفة، وكانوا يعلمون أنهم على قدر تقربهم الى الخلفاء يفقدون ثقة الناس واعتمادهم وموقعهم عند الجمهور.

وأما المسلمون الشيعة، فكان ولاؤهم منذ وفاة رسول الله ﷺ لأهل بيت رسول الله، ولم يتغير خطّهم السياسي في الولاء والبراءة منذ وفاة رسول الله الى اليوم.

إنّ للحسين عليه السلام دوراً كبيراً في حفظ الإسلام من التحريف والتشويه الذي جاء به بنوأمية وحقاً عظيماً على المسلمين شيعة وسنّة.

فلولا عاشوراء ومصرع الحسين عليه السلام وأهل بيته وأصحابه بتلك الصورة المفجعة لبقي خلفاء بني أُمية في موقع الشرعية السياسية، وكان للمظالم والمفاسد التي يرتكبونها انعكاس واسع على الإسلام، وأثر تحريفي على هذا الدين، ولم يسلم لنا الإسلام بالشكل الذي نتلقاه اليوم من مصادر الكتاب والسنّة، وقد حدث مثل هذا التحريف في الأديان السابقة بأسباب مشابهة. وقد شاء الله تعالى أن يسلم هذا الدين بمصرع الحسين. وهو معنى قوله ﷺ: «حسين مني وأنا من حسين،أحبّ الله من أحبّ حسيناً»[1].

فقد تغيّر رأي المسلمين في بني أُمية وشرعيتهم، واطلق فقهاء المسلمين وعلماؤهم القول في تفسيق يزيد وشجبه وسلب الثقة من خلافة بني أُمية عامة.

١- صحيح الترمذي٢: ٣٠٧، ورواه البخاري في الأدب المفرد باب معانقة الصبي، ورواه ابن ماجة في باب فضائل أصحاب رسول الله، ورواه المتقي في الكنز٦: ٣٢١.

يقول ابن خلدون في المقدمة (غلط القاضي أبوبكر بن العربي المالكي إذ قال إنّ الحسين قتل بسيف جدّه، وهو غفلة عن اشتراط الإمام العادل في الخلافة الإسلامية. ومن أعدل من الحسين في زمانه وإمامته وعدالته في قتال أهل الآراء).

وذكر الاجماع على فسق يزيد، ومعه لا يكون صالحاً للإمامة[١].

ويقول ابن مفلح الحنبلي: جوّز ابن عقيل الخروج على الإمام غير العادل بدليل خروج الحسين على يزيد لإقامة الحق.

ويقول ابن الجوزي في يزيد: (ولو قدرنا صحة خلافته، فقد بدرت منه بوادر، وظهرت منه أُمور كل منها يوجب فسخ ذلك العقد، من نهب المدينة، ورمي الكعبة بالمنجنيق، وقتل الحسين وأهل بيته[٢].

ويقول التفتازاني: (لا نتوقف في شأنه (يزيد)، بل في إيمانه، لعنة الله عليه، وعلى أنصاره وأعوانه)[٣].

ويقول ابن حزم في (المحلّى): قيام يزيد بن معاوية لغرض دنيا فقط، فلا تأويل له وهو بغي مجرد[٤].

ويقول الذهبي في سير أعلام النبلاء: كان يزيد ناصبياً، غليظاً فظاً جلفاً، يتناول المسكر، ويفعل المنكر، افتتح دولته بمقتل الشهيد الحسين عليه السلام، واختتمها بوقعة الحرة، فمقته الناس، ولم يبارك في عمره وخرج عليه غير

١- مقدمة ابن خلدون: ٢٥٤ و ٢٥٥.

٢- مقتل الحسين للمقرّم: ٩.

٣- شرح العقائد النسفية: ١٨١ عن مقتل المقرم: ٩.

٤- المصدر السابق .

واحد بعد الحسين كأهل المدينة"[1].

ومهما يكن من أمر، فقد تجردت خلافة بني أُمية بعد مصرع الحسين عليه السلام من الشرعية السياسية وقدسية الخلافة النبوية التي كانت تمتلكها الخلافة قبل ذلك، وأصبح الناس يتعاملون معها، كما يتعاملون مع أية سلطة زمنية غير شرعية، وحلَّ الفقهاء محل الخلفاء في إدارة شؤون دين الناس، واستمر الأمر على هذا النهج الى اليوم.

وبعد هذا الشرح الذي طال بعض الشيء، لا نتوقف كثيراً عندما نسأل عن الغالب في كربلاء.

فلم يكن الحسين عليه السلام يطلب في رحلته الى العراق فتحاً عسكرياً على الطريقة التي يألفها الناس في الحروب، ولا يمكن ـ على كل الحسابات ـ أن يخفى أمر هذه المواجهة العسكرية على الحسين عليه السلام، ولا يكون الحسين عليه السلام أقل وعياً لظروف العراق والشام من كل أُولئك الذين نصحوه بعدم الخروج، ولم يكن الإمام يتهمهم في نصحهم وصدقهم.

لقد كان الحسين عليه السلام يطلب إثارة الوعي في نفوس الناس، وإحداث هزّة عميقة وقوية في الضمير الإسلامي الذي ركن الى بني أُمية، وإعادة الحركة والإرادة والعزم، والغيرة على الإسلام والمسلمين الى نفوس المسلمين، وكسر حاجز الخوف وإسقاط هيبة ورهبة بني أُمية في النفوس وهذه هي الغاية الحركية من ثورة الحسين عليه السلام وقد حققها الله تعالى له في هذه المعركة.

وكانت الغاية الأُخرى سياسية، وتتلخص في تجريد بني أُمية من الشرعية

١- سير أعلام النبلاء: ٥، ٨٢، ٨٤

السياسية لئلا تنعكس ممارستهم في الظلم والإفساد على الإسلام، ويسلم الإسلام من الحالات الجاهلية التي حملها معهم بنوأُمية الى مواقع القوة والحكم في المجتمع الإسلامي يومذاك.

وهذه هي الغاية السياسية، وقد حققّ الله تعالى له النصر والفتح في هذه وتلك، وألحق الله الهزيمة ببني أُمية في كل منهما.

وكان جواب الإمام علي بن الحسين عليه السلام للسائل دقيقاً عندما قال له: انتظر حتى يحل وقت الصلاة، ويؤذّن الناس ويقيمون لترى من هو الغالب في كربلاء.

يعرض الطاغية المال على أهل البيت عليهم السلام

وبعد سبعة أيّام من النياحة والعزاء المعلن على الحسين عليه السلام والمشاركة الواسعة لنساء الشام والهاشميات والقرشيات والأُمويات في عزاء الحسين عليه السلام، دعا يزيد أهل البيت عليهم السلام واعتذر الى زين العابدين عليه السلام ما حدث، والقى ثقل المسؤولية على ابن مرجانة، ثم خيّرهم بين المقام معه بدمشق أو العودة الى المدينة، فأبوا المقام بدمشق وطلبوا العودة الى المدينة.

وعرض الطاغية على أهل البيت عليهم السلام أموالاً كثيرة ليرضوا عنه عوضاً عما ارتكب بحقهم من الجريمة.

فلم تطق أُم كلثوم أن تتحمّل هذه الصلافة من يزيد، فقالت له:

«ما أقلّ حياؤك يا يزيد، واصلف وجهك، تقتل أخي وأهل بيتي، وتعطيني عوضهم مالاً».

فأنكروا عليه هذا العرض، ورفضوه، واحتقروا عرضه وماله وسلطانه[1].

١- راجع بحار الأنوار ٤٥: ١٩٧.

المرحلة الثالثة من خطاب الثورة الحسينية:
في المدينة المنورة

لبست المدينة الحداد لمقتل الحسين عليه السلام وأقامت عليه النياحة والعزاء مرتين.

أقامت النياحة على الحسين في المرة الأولى عندما بلغهم نبأ شهادة الحسين من جانب رسول ابن زياد الى عمرو بن سعد الأشدق عامل يزيد على المدينة.

وفي المرة الثانية بعد وصول أهل البيت عليهم السلام الى المدينة، وسوف نتحدث عنهما تباعاً، بقدر ما يتعلق بموضوع بحثنا (الخطاب الحسيني في المدينة المنوّرة).

١. الحداد الأوّل للمدينة بمصرع الحسين عليه السلام

وصول نبأ شهادة الحسين عليه السلام الى المدينة:

للحرمين الشريفين أهمية كبيرة في كل السياسات المركزية لدولة بني أُمية... ولذلك فقد بادر ابن زياد الى ارسال رسول من الكوفة الى الأشدق عامل بني أُمية على المدينة ليعرفه بخبر مقتل الحسين عليه السلام، وحاول الرسول أن يعتذر بالمرض، فأبى ابن زياد إلاّ أن يعجّل بابلاغ أمير المدينة عمرو بن سعيد الأشدق بخبر مقتل الحسين، وأمر أن يجدّ في السير حتى لا يسبقه

غيره بالخبر الى المدينة، مخافة أن يخرج الأمر عن إدارة أمير المدينة.

فبلغ الرسول المدينة، فلقيه رجل من قريش عند مدخل المدينة، وتبيّن في وجهه الارهاق والاستعجال فشكّ في أمره، فسأله عن الخبر، فقال له: الخبر عند الأمير(١).

فعرف الرجل أن الخبر يتعلق بمقتل الحسين عليه السلام.

فقال: إنّا لله وإنّا إليه راجعون، قتل والله الحسين، صدقت أُم سلمة بما نُبّأت به(٢).

ودخل الرسول على الأشدق أميرالمدينة، فألقى إليه الخبر، فسُرّ الأشدق بالخبر وفرح به وقال:

(واعية بواعية عثمان)(٣).

خطاب الأشدق

ودعا الأشدق الناس الى مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله فرقى الأعواد، وهو لا يملك نفسه فرحاً بمقتل الحسين عليه السلام فقال: (أيها الناس، إنّها لدمة بلدمة، وصدمة بصدمة، كم خطبة بعد خطبة، حكمة بالغة، فما تغني النذر، لقد كان يثلبنا ونمدحه، ويقطعنا ونصله، كعادتنا وعادته، ولكن كيف نصنع بمن سلّ سيفه علينا يريد قتلنا، إلاّ أن ندفعه عن أنفسنا)(٤).

١- راجع تاريخ الطبري٦: ٢٦٨.

٢- حياة الإمام الحسين للقرشي٣: ٤١٦، زينب بنت علي لعبد العزيز سيدالأهل.

٣- تاريخ الطبري٦: ٢٦٨.

٤- مقتل المقرم٤: ٤٠٦.

ردود الفعل

فقام إليه عبدالله بن السائب، وقال: لو كانت فاطمة عليها السلام حيّة، ورأت رأس الحسين عليه السلام لبكت عليه.

وكان هذا هو الإنكار الأوّل، وبداية السخط والاعتراض والإنكار على جريمة بني أُمية.

فردّ عليه الأشدق، وكان فظّاً، فقال:

(نحن أحقّ بفاطمة منك، أبوها عمّنا، وزوجها أخونا، وأُمها ابنتنا، ولو كانت فاطمة حيّة لبكت عينها، وما لامت من قتله)[1].

وعلى طريقة بني أُمية في ارهاب الناس وإرغامهم على السكوت ومطاوعة الحكّام في جرائمهم، والكفّ عن الاعتراض، أمر الأشدق بهدم دور بني هاشم في المدينة، وضرب الناس إذا عرف منهم المعارضة والإنكار، فضرب الناس ضرباً شديداً مبرحاً، وهرب الناس منه الى ابن الزبير في مكة[2].

نساء بني هاشم يندبن الحسين عليه السلام

فضجّت نساء بني هاشم بالبكاء والنياحة على الحسين عليه السلام، واتصل الخبر بالطاغية الأشدق، فضحك وتمثل بقول عمرو بن معد يكرب:

عجّت نساء بني زياد عجّة   كعجيج نسوتنا غداة الأرنب[3]

١- مقتل الحسين عليه السلام للمقرّم٤: ٤٠٦.

٢- المصدر السابق عن الأغاني٤: ١٥٥.

٣- راجع تاريخ الطبري٦: ٢٦٨.

وخرجت أسماء بنت عقيل بن أبي طالب عليه السلام في جماعة من نساء قومها حتى انتهت الى قبر رسول الله صلى الله عليه وآله، فلاذت به وشهقت عنده، ثم خاطبت الأنصار والمهاجرين:

ماذا تقولون إذ قال النبي لكم ... يوم الحساب وصدق القول مسموع
خذلتموا عترتي أو كنتم غُيبا ... والحق عند ولي الأمر مجموع
اسلمتموهم بأيدي الظالمين فما ... منكم له اليوم عند الله مشفوع
ما كان عند غداة الطف إذ حضروا ... تلك المنايا ولا عنهنّ مدفوع

فبكت وابكت القوم، يقول الشيخ الطوسي في أماليه:

فلم يُر باك وباكية مثل ذلك اليوم[1].

وندبت زينب بنت عقيل بن أبي طالب، الحسين عليه السلام بأشجى ندبة، وأنشدت:

ماذا تقولون إذ قال النبي لكم ... ماذا فعلتم وأنتم آخر الأُمم
بعترتي وبأهلي بعد مفتقدي ... منهم أُسارى، ومنهم ضرّجوا بدم
ما كان هذا جزائي إذ نصحتكم ... أن تخلفوني بسوءفي ذوي رحمي[2]

فأجابها أبو الأسود، وهو غارق في البكاء والشجون: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾.

وأخذ يقول:

أقول، وزادني حنقاً وغيظا ... أزال الله ملك بني زياد
وابعدهم، كما بعدوا وخانوا ... كما بعدت ثمود وقوم عاد

١- مقتل المقرم: ٤٠٧، عن الأمالي للشيخ الطوسي: ٥٥.

٢- اللهوف لابن طاووس: ٩٦.

ولا رجعت ركائبهم إليهم إذا وقفت بهم يوم التناد[١]

وأقامت أُم البنين زوجة أميرالمؤمنين العزاء على الحسين عليه السلام، وكانت نساء بني هاشم يجتمعن عندها للعزاء والنياحة[٢].

عبدالله بن جعفر يقيم المأتم للحسين عليه السلام

وأخذ الناس يتوافدون على عبدالله بن جعفر، يعزّونه بمصرع الحسين عليه السلام والشهداء من أهل بيته وأصحابه.

وكان له مولى يقال له أبوالسلاسل، فقال متأثراً بمقتل أبناء عبدالله: (هذا ما لقيناه من الحسين).

فخذفه عبدالله بنعله، وقال له: (يابن اللخناء[٣] تقول ذلك في الحسين، والله لو شهدته لأحببت أن لا أُفارقه حتى أُقتل معه والله أنه لمما يسخي نفسي عن ولدي، ويهوّن عليّ المصاب بهما إنّهما أُصيبا مع أخي وابن عمي مواسين له صابرين معه) ثم أقبل على حضّار مجلسه، فقال لهم: (الحمدلله وإن عزّ عليّ المصاب بمصرع الحسين عليه السلام أن لا أكون واسيته بنفسي، فلقد واساه ولدي)[٤].

وهكذا انتشر الخبر بمقتل الحسين عليه السلام في مدينة رسول الله صلى الله عليه وآله في وسط جوّ من الأسى والنياحة والعزاء، والإحساس بالذنب: إنّهم لم يواسوا الحسين عليه السلام بأنفسهم، كما قرأنا شطراً من ذلك في كلام أبي الأسود.

١- حياة الإمام الحسين للقرشي ٣: ٤١٩، نقلاً عن مجمع الزوائد للهيثمي: ٩: ١٩٩.

٢- مقتل المقرم: ٤٠٨، عن رياض الأحزان: ٥٩ ـ ٦٠.

٣ـ اللخناء: الأمة التي لم تختن عن القاموس المحيط ٤: ٢٦٨.

٤- تاريخ الطبري ٦: ٢١٨.

عبدالله بن عباس يفجع بالحسين ويقيم المأتم

روى ابن عساكر في تاريخ دمشق: إنّ عبدالله بن العباس كان في الحرم، إذ أسرّ إليه شخص بالحادث المفجع في العراق فذعر، واجهش بالبكاء.

فسأله محمد بن عبدالله:

ما حدث يا أبا العباس؟

قال: مصيبة عظيمة نحتسبها عند الله، وارتفع صوته بالبكاء، وانصرف الى منزله، واقام في منزله مأتماً على الحسين عليه السلام واقبل الناس يعزّونه بمصيبة الحسين[1].

٢ـ الحداد الثاني للمدينة بمصرع الحسين عليه السلام

عودة أهل البيت عليهم السلام الى المدينة

كان لابد للطاغية أن يحدث تغييراً في سياسته تجاه أهل البيت عليهم السلام من العنف والارهاب الى الارفاق والتعاطف، وأن يتظاهر بالندم، ويلقي عبئ المسؤولية على عهدة ابن مرجانة، كما ذكرنا.

فأمر الطاغية بتجهيز أهل البيت عليهم السلام للعودة، وطلب من النعمان بن البشير، وكان محبّاً لأهل البيت عليهم السلام أن يرافقهم من الشام الى المدينة، وأن يرفق بهم في المسير[2].

١- تاريخ ابن عساكر١٣: ٨٦

٢- الإرشاد للمفيد: ٢٣١.

وأمر يزيد أن يغادر أهل البيت عليهم السلام الشام ليلاً، ومن غير إعلان[1]، لئلا يعلم الناس بخروجهم، فيخرجوا لتوديعهم، كما حصل في الكوفة، وكان يزيد يخاف سخط الناس وغضبهم ويخاف الاضطراب والفتنة.

فخرج النعمان بأهل البيت عليهم السلام ولم يزل يرافقهم وينازلهم في الطريق، ويرفق بهم حتى دخلوا المدينة[2].

بشير بن حذلم ينعى الحسين عليه السلام الى مدينة جدّه

قال بشير بن حذلم: لما قربنا من المدينة نزل علي بن الحسين وحطّ رحله وضرب فسطاطه وأنزل نساءه وقال: يا بشير رحم الله أباك لقد كان شاعراً فهل تقدر على شيء منه؟ قلت: بلى يا ابن رسول الله إني لشاعر.

فقال عليه السلام: ادخل المدينة وانع أبا عبدالله عليه السلام.

قال بشير: فركبت فرسي حتى دخلت المدينة فلمّا بلغت مسجد النبي صلى الله عليه وآله رفعت صوتي بالبكاء وانشأت:

يا أهل يثرب لا مقام لكم بها ... قتل الحسين فأدمعي مدرار
الجسم منه بكربلاء مضرّج ... والرأس منه على القناة يدار

وقلت: هذا علي بن الحسين مع عمّاته وأخواته قد حلّوا بساحتكم وأنا رسوله إليكم أعرّفكم مكانه. فخرج الناس يهرعون ولم تبق مخدّرة إلاّ برزت بالويل والثبور، وضجّت بالبكاء، فلم ير باكياً أكثر من ذلك اليوم[3].

١- حياة الإمام الحسين للقرشي ٣: ١٩٧.

٢- الارشاد للمفيد: ٢٣١.

٣- اللهوف للسيد ابن طاووس: ١١٦.

جمهور المدينة يستقبلون أهل البيت عليهم السلام بالبكاء والنياحة

يقول بشير بن حذلم (جذلم): وسمعت جارية تنوح على الحسين فتقول:

نعى سيدي ناع نعاه فأوجعا وأمرضني ناع نعاه فأفجعا
فعينيّ جودا بالدموع وأسكبا وجودا بدمع بعد دمعكما دمعا
على من دهى عرش الخليل فزعزعا فأصبح هذا المجد والدين أجدعا
على ابن نبيّ الله وابن وصيّه وإن كان عنّا شاحط الدار اشسعا

ثم قالت: أيها الناعي جددت حزننا بأبي عبدالله عليه السلام، وخدشت منا قروحاً لم تندمل، فمن أنت رحمك الله؟

قلت: أنا بشير بن حذلم وجّهني مولاي علي بن الحسين، وهو نازل في موضع كذا وكذا مع عيال أبي عبدالله الحسين عليه السلام ونسائه.

قال: فتركوني مكاني وبادروني (سبقوني الى أهل البيت عليهم السلام خارج المدينة). فضربت فرسي حتى رجعت إليهم، فوجدت الناس قد أخذوا الطرق والمواضع، فنزلت عن فرسي، وتخطّيت رقاب الناس حتى قربت من الفسطاط، وكان علي بن الحسين عليه السلام داخلاً، فخرج ومعه خرقة يمسح بها دموعه، وخلفه خادم معه كرسي فوضعه له، وجلس عليه، وهو لا يتمالك من العبرة، وارتفعت أصوات الناس بالبكاء وحنين النساء والجواري، والناس يعزّونه من كل ناحية، فضجّت تلك البقعة ضجّة شديدة، فأومأ بيده أن اسكتوا، فلمّا سكنت فورتهم قال:

خطبة علي بن الحسين عليه السلام في المدينة

«الحَمْدُلله ربّ العالَمينَ، الرّحمنْ الرّحيمْ، مالكِ يَوم الدّين، بارئُ الخلائق أجمَعين، الّذي بعُد، فارتفع في السّموات العُلى، وقَرُبَ فَشهَدَ النّجوى،

نَحمُدُه عَلى عظائم الأمور، وَفجائع الدُهور، وألم الفَجائع، ومَضاضَة اللواذع، وَجليلِ الرزأ، وَعَظيمِ المصائب الفاظعة الكاظّة الفادحة الجائحة.

أيُها القُوم، إنَّ الله تعالى وَلهُ الحَمْدُ ابتَلانا بمصائب جَليلة، وَثلمَة في الإسلام عَظيمَة، قُتل أبوعَبْدالله الحُسَين عليه السلام وَعترته، وَسُبيتْ نساؤه وَصبْيَته، وَداروا برأسه في البُلدان، منْ فَوق عامل السنان، وهذه الرَزية التي لا مثلها رَزّية.

أيُها النّاس، فأيُّ رجالات منكُمْ يُسرّون بَعدَ قَتله، أمْ أيّ فؤاد لا يَحزنْ من أجله، أم أيةَ عَين منكُم تَحبُس دَمعَها، وتَضنْ عَنْ انهمالها، فَلَقَد بَكَتْ السَبعُ الشداد لقَتله، وبَكَتْ البحارُ بأمواجها، والسَّماوات بأركانها، والأرضُ بأرجائها، والأشجارُ بأغصانها، والحيتانُ في لُججْ البحارُ، والمَلائكةُ المقرّبون، وأهل السَّماوات أجمَعُونَ.

أيُها الـنّاسُ، أيُّ قَلب لا يَنصَدعُ لقَتله، أمْ أي فُؤاد لا يحنّ إليه، أمْ أيَّ سَمع يَسمْعُ بِهذه الثَلمة الّتي ثُلمتْ في الإسلام ولا يُصَمْ.

أيُها النّاس، أصبَحنا مُشرّدين مَطرُودينَ مذودين شاسعين عَنْ الأمصار كأنّا أولادُ تُرك وكابُل، منْ غَير جُرم اجترمناه، ولا مَكرُوه ارتكبناه، ولا ثَلمةٌ في الإسلام ثَلمناها، ما سمعنا بهذا في آبائنا الأوّلين، إنّ هذا إلاّ اختلاق والله لَو أن النّبيّ تقدّم إليه في قتالنا كما تَقدْم إليهم في الوصية بنا لما زادوا عَلى ما فَعلوا بنا، فإنّا لله وإنّا إليه راجعُون من مُصيبة ما أعظَمها وأفجَعها وأوجَعها وأكظَها وأفظَعَها وأمرّها وأفدَحَها، فعندَ الله نَحتَسبْ ما أصابَنا، وما بَلغ بنا، فإنّه عزيزٌ ذو انتقام[1].

١- المصدر السابق.

زينب تنعى الحسين الى جدّها رسول الله ﷺ

ودخلت زينب عليها السلام على قبر جدّها رسول الله ﷺ وهي ملتاعة، ناعية الى رسول الله ﷺ أخاها الحسين عليه السلام شاكية إليه ما رأته من ظلم وسفك واضطهاد فأخذت بعضادتيّ باب المسجد، ونادت:

يا جداه، إنّي ناعية إليك أخي الحسين[1].

أم كلثوم تشكوا الى جدّها مصرع الحسين عليه السلام

وأنشدت أُم كلثوم تنعى الى جدّها مصرع الحسين عليه السلام وتشكوا إليه غدر الأمة، وبطش الظالمين، وتقول في شجي وأسى:

مدينة جدّنا لا تقبلينا	فبالحسرات والأحزان جينا
خرجنا منك بالأهلين جمعاً	رجعنا لا رجال ولا بنينا
وكنا في الخروج بجمع شمل	رجعنا خاسرين مسلبينا
وكنّا في أمان الله جهراً	رجعنا بالقطيعة خائفينا
ومولانا الحسين لنا أنيس	رجعنا والحسين به رهينا
فنحن الضائعات بلا كفيل	ونحن النائحات على أخينا
ألا يا جدّنا قتلوا حسيناً	ولم يرعوا جناب الله فينا
ألا يا جدّنا بلغت عدانا	مناها واشتفى الأعداء فينا
لقد هتكوا النساء وحمّلوها	على الأقتاب قهراً أجمعينا[2]

١- مقتل المقرم: ٤٥٢.

٢- منتخب الطريحي: ٣٥٧.

نياحة بنات رسول الله ﷺ عند قبر رسول الله ﷺ

وصاحت سكينة: يا جدّاه إليك المشتكى مما جرى علينا فوالله ما رأيت أقسى من يزيد ولا رأيت كافراً ولا مشركاً شراً منه ولا أجفا وأغلظ فلقد كان يقرع ثغر أبي بمخصرته وهو يقول: كيف رأيت الضرب يا حسين[١].

رثاء الرباب للحسين عليه السلام

ووجدت الرباب بنت امرئ القيس زوجة الحسين عليه السلام وهي أُم سكينة وجداً شديداً، وحزنت عليه حزناً بليغاً، وكانت ترثاه رثاءً شجياً، فماتت رحمها الله حزناً وكمداً.

ومن رثائها في الحسين عليه السلام ما يرويه أبوالفرج الاصفهاني في الأغاني:

إنّ الذي كان نوراً يستضاء به بكربلاء قتيل غير مدفون
سبط النبي جزاك الله صالحة عنا وجنبت خسران الموازين
قد كنت لي جبلاً صعباً ألوذ به وكنت تصحبنا بالرحم والدين
مَن لليتامى ومن للسائلين ومَن يغني ويأوي إليه كل مسكين[٢]

نياحة أهل البيت عليهم السلام على الحسين عليه السلام في المدينة

واقمن نساء أهل البيت عليهم السلام على الحسين، ولم تزل حرائر آل البيت يداومن على النياحة للحسين عليه السلام وزين العابدين عليه السلام يتعهدهنّ بالطعام كما في رواية البرقي في المحاسن[٣].

١- مقتل المقرم: ٤٥٢.

٢- الأغاني لأبي الفرج ١٤: ١٥٨.

٣- المحاسن للبرقي: ٢: ٤٢٠.

وفي حديث الإمام الصادق عليه السلام: «ما اختضبت هاشمية ولا ادهنت ولا أُحيل مرود في عين هاشمية خمس حجج، حتى بعث المختار رحمه الله برأس عبيدالله بن زياد»[١].

وكان مسوّر بن مخرمة وأبوهريرة والمشيخة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله يأتون متسترين، مخافة عيون بني أُمية وجواسيسهم، ويبكون لنياحة نساء أهل البيت عليهم السلام وحزنهنّ على الحسين عليه السلام[٢].

أحزان علي بن الحسين عليه السلام وزينب عليها السلام

ولم تنقطع أحزان زين العابدين وعمته زينب، وكان كلما ذُكر الحسين عليه السلام استغرقه البكاء، فإذا ذكره عند الطعام والشراب بكى حتى يبلّ الطعام من بكائه.

وقال له بعض مواليه يوماً: أما آن لحزنك أن ينقضي يا سيدي؟

فقال له: **ويحك أن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم كان نبيّاً ابن نبي، وكان له اثنى عشر ابناً، فغيّب الله سبحانه واحداً منهم فذهب بصره من البكاء، وأنا فقدت أبي وأخي وسبعة عشر من أهل بيتي صرعى مقتولين فكيف ينقضي حزني ويقل بكائي»**[٣].

وكانت زينب بنت علي عليه السلام لا تجف لها عبرة ولا تفتر من البكاء والنحيب، وكلّما نظرت الى علي بن الحسين عليه السلام ابن أخيها تجدّد حزنها وزاد وجدها[٤].

١- بحار الأنوار ٤٥: ٣٨٧.

٢- دعائم الإسلام ١: ٢٣٠، حسبما ورد في حياة الإمام الحسين ٣: ٤٢٨.

٣- اللهوف: ١٨٨ ـ ١٩٠.

٤- منتخب الطريحي: ٣٥٨.

الفهرس

الفصل الثاني: تفصيل المرحلة الثانية من مراحل الثورة الحسينية

الفصل الثالث: مراحل الخطاب الحسيني بعد يوم عاشوراء